فرانز كافكا



الانمساخ

قصة طويلة

مع تفسيرات

ترجمها عن الألمانية

ابراهيم وطفي

فرانز كافكا

الانمساخ



قصة طويلة

مع تفسيرات

ترجمها عن الألمانية

ابراهيم وطفي

الانمساخ



منشورات وطفي

gibran.watfe@gmail.com

www.kafkarabic.com

التوزيـــــــــــع:
دار الكلمة ودار الحصاد
سورية ـ دمشق ـ برامكة
kalemah@scs-net.org.sy
ها/فاكس: ٢١٢٦٣٢٦

الطبعة الأولى

عام ٢٠١٤

م. و. إ. ع. ط: ١١١٩٧٥
تاريخ: ٢٣ ـ ١٠ ـ ٢٠١٤

(نشرت في الطبعات الثلاث الأولى
للجزء الأول من «الآثار الكاملة»)

«على الكتاب أن يكون الفأس التي تكسر البحر المتجمد فينا»

(كافكا)

«إن كتابات كافكا هي ضربة فأس ضد البحر المتجمد فينا»

(ناقد)

«نصوص كافكا تدعو للعمل منه مكتب استعلامات عن الوضع الأبدي أو الحالي للإنسان»

(الفيلسوف أدورنو)

إلى

أنّي

كاتارينا جبرانا

زكية ميلينا

وجبران خليل

الفهرس

١

حين أفاق غريغور سامسا ذات صباح من أحلام مزعجة، وجد نفسه وقد تحول في فراشه إلى حشرة ضخمة. كان مستلقياً على ظهره الصلب الذي بدا وكأنه مصفّح بالحديد؛ وحين رفع رأسه بعض الشيء استطاع أن يرى بطنه الأسمر الشبيه بالقبّة مقسّماً إلى فلقات قاسية مقوّسة كان من المتعذر على اللحاف، أو يكاد، أن يظل في مكانه فوقها، فهو على وشك أن ينزلق انزلاقاً كاملاً. أما أرجله المتعددة، التي كانت هزيلة إلى حد يثير الرثاء قياساً إلى سائر بدنه، فقد راحت تتماوج في عجز أمام ناظريه.

وفكر قائلاً في ذات نفسه: «ما الذي أصابني؟» لم يكن ذلك حلماً. إن غرفته، وهي حجرة نوم بشرية نظامية، وإن تكن صغيرة أكثر مما ينبغي، لتقع تماماً داخل الجدران الأربعة المألوفة. وفوق الطاولة، حيث انتشرت مجموعة من عيّنات الجوخ أُخرِجت من صُرَرِها ـ كان سامسا مندوباً تجارياً متجولاً ـ، تدلّت الصورة التي كان قد اقتطعها، منذ وقتٍ قريب، من إحدى المجلات المصورة ووضعها في إطار مذهّب جميل. كانت تلك الصورة تمثل سيدة ترتدي قبعة من فرو وتتلفع بلفاع من فرو على شكل حيّة، وقد جلست معتدلة باسطة للناظر قطعة فرو لليدين كبيرة غاب فيها ساعدها كله.

والتفتت عينا غريغور، بعد ذلك، إلى النافذة، فإذا بالسماء المتلبدة بالغيوم ـ كان في ميسور المرء أن يسمع قطرات المطر تنهمر على حافة النافذة ـ توقع في نفسه كآبة بالغة. وقال في ذات نفسه: «لِمَ لا أستسلم للرقاد قليلاً، وأنسى هذا الهراء كله؟» لكن الأمر لم يكن قابلاً للتنفيذ قط؛ إذ إن غريغور كان معتاداً على

أن ينام على جنبه الأيمن، ولم يكن في وسعه - وهو على تلك الحال - أن يستدير. ومهما كانت القوة التي يلقي بها نفسه على جنبه الأيمن، فإنه كان يتأرجح كل مرة عائداً للاستلقاء على ظهره. لقد حاول ذلك مئة مرة على الأقل، مغمضاً عينيه لكي لا يضطر إلى رؤية أرجله الملعبطة. ولم يكفّ عن ذلك إلا عندما بدأ يستشعر في جنبه ألماً واهناً كليلاً لم يعرفه من قبل في يوم من الأيام.

وفكّر: «آه، يا إلهي، أي وظيفة منهكة قد تخيّرت! الطواف في البلاد، يوماً بعد يوم. إن إزعاجات هذا العمل أكبر من إزعاجات العمل في المحل الأصلي، وفوق ذلك كله فُرض عليّ عناء السفر، وهناك الخوف من عدم اللحاق بالقطارات، وهناك وجبات الطعام الرديئة وغير المنتظمة، والاتصالات الإنسانية المتبدلة دائماً، غير المتواصلة أبداً، والتي لا تصبح ودّية قط. فليأخذ الشيطان ذلك كله!» واستشعر أُكالاً طفيفاً فوق بطنه، وببطء دفع نفسه على ظهره أقربَ فأقرب إلى مقدّم سريره كي يصبح في ميسوره أن يرفع رأسه بشكل أفضل. وتعرّف إلى موضع الأكال الذي كان مليئاً ببقع صغيرة بيضاء متعددة لم يستطع أن يفهم طبيعتها، وأراد أن يلمس الموضع بإحدى أرجله، لكنه سحب تلك الرجل في الحال، لأن الاحتكاك أوقع في أوصاله رعدة باردة.

وانزلق من جديد إلى وضعه السابق. وفكّر: «هذا النهوض الباكر من الفراش يجعل المرء أبله تماماً. إن الإنسان ليحتاج إلى رقاده. وإن غيري من المندوبين التجاريين ليعيشون مثل نساء الحريم. فحين أرجع مثلاً إلى الفندق في ساعة من ساعات الضحى، لكي أدوّن الصفقات التي عقدتها، يكون هؤلاء السادة قد جلسوا منذ لحظات لتناول طعام الفطور. فلأجرب ذلك مع رئيسي! عندئذ سوف أسرّح من عملي على الفور. وعلى أية حال، من يدري فيما إذا لم يكن من شأن هذا أن يكون شيئاً صالحاً جداً بالنسبة إليّ؟ ولولا أني أكبح جماح نفسي بسبب من والديّ، لكنت أنذرت منذ زمن طويل، إذاً لذهبت إلى الرئيس وقلت له رأيي من صميم قلبي. وكان لا بدّ له أن يقع من فوق مكتبه! وإنها لطريقة غريبة أيضاً كيف يجلس على المكتب ويتحدث من علٍ إلى المستخدم

الذي يتعيّـن عليه، فوق ذلك، أن يقترب كل الاقتراب لأن الرئيس مصاب بثقل في السمع. حسناً. ما زال الأمل لم يُفقد بعد كلية. فما إن أجمع المال كي أسدد له دين الوالدين ـ أظن أن هذا يستغرق خمس أو ست سنوات أخرى ـ حتى أقوم بذلك على أي حال. ثم تُعمل القطيعة الكبرى. أما الآن فإنه ينبغي عليّ أن أنهض، إذ إن قطاري ينطلق في الساعة الخامسة».

ونظر إلى الساعة المنبهة على الخزانة والتي كان يسمع دقاتها. وقال في ذات نفسه: «يا رب!» كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف، وكان العقربان يتحركان بهدوء، بل لقد تجاوزت الساعةُ السادسةَ والنصف، وكادت تصبح السابعة إلا ربعاً. هل حدث أن جرس الساعة المنبهة لم يقرع؟ كنت ترى، من السرير، أنها كانت قد ضبطت بشكل صحيح على الساعة الرابعة، ولا ريب أن الجرس قد قرع أيضاً. لكن هل كان من الممكن الاستمرار في النوم بهدوء وسط رنين يهز الأثاث؟ حقاً، إنه لم ينم نوماً هادئاً، ومع ذلك يبدو أنه قد نام نوماً عميقاً. لكن ماذا ينبغي عليه أن يفعل الآن؟ إن القطار التالي سينطلق في الساعة السابعة. ولكي يلحق به كان يتعين عليه أن يسرع بشكل غير معقول، ولم تكن عيّناته قد رزمت بعد، ولم يكن هو نفسه يستشعر النشاط وخفة الحركة على نحو مخصوص. وحتى لو استطاع أن يلحق بالقطار، فإن ذلك لن يجنّبه زمجرة الرئيس وتعنيفه، إذ إن خادم الشركة انتظر قطار الساعة الخامسة وأبلغ تخلفه عن المجيء منذ مدة طويلة. كان هذا الخادم صنيعة من صنائع الرئيس، وكان جباناً أبله. حسناً، ماذا لو بلّغ غريغور أن مرضاً ألمّ به؟ لكن من شأن هذا أن يكون أمراً مخجلاً إلى أبعد الحدود ومثيراً للريبة. إذ إن غريغور لم يمرض مرة واحدة طوال خدمته التي دامت خمس سنوات. ولا شك أن الرئيس قمين أن يأتي مع طبيب الضمان الصحي، ويوبخ الوالدين لكسل الابن، ويحبط جميع الأعذار بالإشارة إلى طبيب الضمان، هذا الطبيب الذي لا يوجد بالنسبة إليه سوى أناس أصحاء كلية لكنهم كسولون. وهل يكون هذا الطبيب ممعناً في الخطأ، في هذه الحال؟ لقد كان غريغور ينعم فعلاً بصحة جيدة، لولا هذا النعاس الذي كان حقاً فضلةً لا داعي لها البتة بعد ذلك النوم الطويل؛ بل لقد كان يستشعر الجوع على نحو مخصوص.

وفيما كان ذلك كله يدور في خلده بسرعة خاطفة من غير أن يتمكن من عقد النية على مغادرة سريره ـ كانت الساعة المنبهة قد أعلنت لتوها السابعة إلا ربعاً ـ قُرع الباب قرعاً حذراً خلف مقدّم سريره. وقال صوت، هو صوت الأم: «غريغور، الساعة السابعة إلا ربعاً. ألم تكن تريد أن تسافر؟» يا للصوت الرفيق! وأصيب غريغور بصدمة حين سمع صوته المجيب، هذا الصوت الذي كان صوته السابق بشكل لا يمكن الخطأ فيه، لكنه كان صوتاً اختلطت فيه زقزقة مؤلمة لا يمكن حبسها، وكأنها آتية من الأعماق. وقد تركت الكلماتِ في وضوحها في اللحظة الأولى فقط، لكي تفسدها في الصدى بشكل لا يستطيع المرء معه أن يعرف فيما إذا كان قد سمع شيئاً. كان غريغور يريد أن يجيب بإسهاب ويشرح كل شيء، لكنه اقتصر في هذه الظروف على القول: «نعم، نعم، أشكرك، يا أمّاه، سوف أنهض الآن». ومن جرّاء الباب الخشبي لم يُلحظ في الخارج التبدل الذي طرأ على صوت غريغور، إذ إن الأم هدّأت روعها بهذا الإيضاح، ومضت لسبيلها متثاقلة. لكن من خلال هذا الحديث القصير لاحظ أفراد الأسرة الآخرون أن غريغور، على غير المتوقع، ما زال في المنزل؛ وإذا بالوالد يقرع على الفور أحد الأبواب الجانبية، في رفق، ولكن بقبضة يده، وينادي: «غريغور، غريغور، ماذا دهاك؟» وبعد برهة قصيرة ذكّر من جديد ونادى في صوت أعمق: «غريغور، غريغور!» لكن عند الباب الجانبي الآخر سألت الأخت بصوت خفيض باك: «غريغور؟ ألست في صحة جيدة؟ هل أنت في حاجة إلى شيء؟» ونحو كلا الجانبين أجاب غريغور: «سوف أخرج بعد قليل»، وسعى لكي يجعل صوته يبدو سوياً إلى أبعد حد مستطاع، ناطقاً الكلمات في وضوح بالغ، ومباعداً بينها مباعدة طويلة. وهكذا عاد الوالد إلى تناول فطوره، لكن الأخت همست: «غريغور، أناشدك أن تفتح الباب». لكن غريغور لم يفكر في فتح الباب بحال من الأحوال، بل أثنى على تلك الحيطة التي أخذها من الأسفار بإقفال الأبواب جميعاً، أثناء الليل، حتى في البيت.

وأراد أولاً أن ينهض في هدوء ودون أن يزعجه أحد، وأن يرتدي ثيابه؛ وأراد قبل كل شيء أن يتناول طعام فطوره؛ وبعد ذلك فقط أراد أن يفكر في ما ينبغي

أن يفعله، إذ إنه، وهذا ما لاحظه جيداً، لن يصل بتأملاته وهو في الفراش إلى خاتمة حكيمة. وتذكر أنه كثيراً ما استشعر، وهو في سريره، ألماً ما طفيفاً لعله نشأ نتيجة رقاده بشكل غير مريح، حتى إذا نهض من الفراش تبيّن أن هذا الألم كان مجرد وهم. وتطلع الآن في لهفة إلى أن يرى تصوراته هذا اليوم تتلاشى تدريجياً. ولم يخامره أدنى شك في أن ذلك التغير الطارئ على صوته لم يكن غير نذير بزكام حادّ هو مرض المندوبين التجاريين السرمديّ.

وكان التخلص من اللحاف يسيراً جداً. لم يكن عليه إلا أن ينفخ نفسه قليلاً وعندئذ يسقط على نحو تلقائي. ولكن الحركة التالية كانت عسيرة، خاصة وأنه كان عريضاً بشكل غير مألوف. كان في حاجة إلى أذرع وأيدٍ لكي يرفع نفسه إلى أعلى، ولكن لم يكن لديه بدلاً من ذلك غير تلك الأرجل العديدة الصغيرة التي لم تكفّ قط عن التحرك في مختلف الاتجاهات، والتي لم يكن في ميسوره أن يسيطر عليها البتة. وإذا ما أراد أن يلوي واحدةً، كانت السبّاقة إلى أن تنبسط على نحو مستقيم؛ حتى إذا وفّق آخر الأمر إلى حملها على النزول عند إرادته، أخذت سائر الأرجل، وكأنه أُخلي سبيلها، تتحرك باهتياج كبير مؤلم. وقال غريغور في ذات نفسه: «حذار من المكوث في الفراش من غير نفع».

وأراد أولاً أن يخرج من السرير بالجزء السفلي من جسده، ولكن ذلك الجزء، الذي لم يكن قد رآه بعد، والذي ما كان في وسعه أن يكوّن فكرة واضحة عنه، أثبت أن تحريكه أمر عسير جداً. وجرى الأمر في بطء شديد. وحين استجمع قواه، بعد أن اهتاج أو كاد، ودفع نفسه أخيراً إلى الأمام في تهور، كان قد أخطأ الجهة، واصطدم بعنف بعمود السرير السفلي. وكان في الألم اللاذع الذي استشعره ما أعلمه أن الجزء الأدنى بالذات من جسده قد يكون في اللحظة الحاضرة أكثر أجزاء جسمه حساسيةً.

وهكذا حاول أن يخرج الجزء الأعلى من جسده أولاً. وفي حَذَر حرك رأسه نحو حافة السرير. وقد تسنّى له هذا بسهولة؛ وعلى الرغم من ثقلها وعرضها، فإن كتلة جسده تبعت أخيراً وفي بطء حركة رأسه. لكنه حين رفع رأسه في النهاية خارج السرير، استشعر من الذعر ما جعله يحجم عن الاستمرار في

التقدم، ذلك بأنه لو ترك نفسه يسقط على هذا النحو إذاً لاقتضاه الحفاظُ على رأسه من الأذى معجزةً من المعجزات. وعليه الآن بالذات أن لا يفقد وعيه بحالٍ من الأحوال. ففضّل البقاء في السرير.

ولكنه وقد استلقى - بعد معاودة الجهود نفسها - في وضعه السابق من جديد، متنهداً متحسراً، وراقب أرجله تتصارع ربما بمزيد من الشدة، ولم يجد وسيلة إلى إقرار النظام في هذا التخبط الاعتباطي، قال لنفسه مرة أخرى إن من المستحيل عليه أن يبقى في السرير، وإن السبيل الأعقل يقتضيه أن يضحّي بكل شيء إذا ما وجد أقل أمل بتحرير نفسه من الفراش من خلال ذلك. ولم ينس في الوقت ذاته أن يذكّر نفسه بأن التفكير الهادئ، التفكير البالغ أقصى غايات الهدوء، خير من القرارات اليائسة. وفي تلك اللحظات صوّب عينيه أقوى ما استطاع تصويبهما إلى النافذة؛ ولكن مشهد ضباب الصباح، الذي حجب حتى الجانب الآخر من الشارع الضيق، لم يحمل إليه للأسف كثيراً من التفاؤل والارتياح. وعند رنين جرس الساعة المنبهة من جديد قال في ذات نفسه: «بلغت الساعةُ السابعةَ. بلغت الساعة السابعة ولا يزال هناك مثل هذا الضباب». والتزم السكينة مدة قصيرة، متنفساً في خفوت وكأنه كان يتوقع ربما من السكون الكامل عودة الظروف الحقيقية والطبيعية. لكنه قال من ثم لنفسه: «قبل أن تعلن السابعة والربع يجب أن أكون على كل حال قد فارقت هذا الفراش كلية. وعلى أية حال، سيأتي حتى ذلك الحين شخص ما من الشركة ليسأل عني، لأن الشركة تفتح أبوابها قبل السابعة». وشرع يهزّ جسده بكامل طوله وبانتظام كلّي ليخرجه من الفراش. وإذا ما ترك نفسه يقع من السرير على هذا النحو، فإن رأسه الذي أراد أن يرفعه أثناء السقوط سيظل على الأرجح سليماً. وبدا الظهر صلباً، ولا يحتمل أن يحدث له شيء حين سقوطه على البساط. وكان أكثر ما يقلقه هو مراعاة القرقعة الصاخبة التي لا بد لها أن تحدث، والتي سوف تثير خلف الأبواب جميعاً - في أغلب الظن - قلقاً إن لم نقل ذعراً. لكن كان لا بد من القيام بتلك المخاطرة.

وحين ارتفع غريغور إلى نصفه خارج الفراش - كانت الطريقة الجديدة لعبة

أكثر منها جهداً، ذلك أنه لم يكن بحاجة إلا إلى هز جسمه على دفعات ـ خطر له مدى ما يمكن أن يكون عليه الأمر من السهولة لو استطاع الفوز بعون ما. إن شخصين قويين ـ وقد فكّر في والده وفي الخادمة ـ خليق بهما أن يكونا كافيين كلية. لن يكون عليهما إلا أن يقحما أذرعهما تحت ظهره المحدّب، ويخرجاه من السرير، وينحنيا بحملهما إلى أدنى، ويعتصما بعد ذلك بالأناة حتى يمكّناه من بلوغ أرض الحجرة حيث يؤمل أن يكون لأرجله الصغيرة جدوى ما. حسناً، وبصرف النظر عن أن الأبواب كلها كانت موصدة، فهل كان يتعيّن عليه فعلاً أن ينادي طلباً للمساعدة؟ ورغم كل الضيق، لم يستطع ـ عند هذه الفكرة ـ أن يكبت ابتسامة.

وكان قد ذهب إلى حدّ أصبح معه لا يكاد يقيم توازنه حين يهزّ نفسه في عنف، وكان عليه أن يوطد العزم وشيكاً على قرار نهائي، لأن الساعة كانت ستصبح السابعة والربع بعد خمس دقائق ـ عندما قرع جرس الباب. وقال في ذات نفسه: «هذا شخص من الشركة»، وتصلب جسده أو كاد، فيما تراقصت أرجله أسرع فأسرع. وطوال مدة، ظل كل شيء هادئاً. وقال غريغور لنفسه متعلقاً بضرب من أملٍ غير عقلانيّ: «إنهم لن يفتحوا الباب». ولكن الخادمة مضت بعد ذلك، طبعاً، إلى الباب بخطاها الثقيلة، كدأبها دائماً، وفتحته. ولم يحتج غريغور إلا إلى سماع أول كلمة تحية يلقيها الزائر حتى يدرك في الحال من كان ذلك الزائر ـ وكيل المؤسسة نفسه، وهو كبير الموظفين فيها. لماذا كان محكوماً على غريغور بالعمل في خدمة شركة يؤدي أصغر ضروب الإهمال فيها إلى إثارة أخطر الرِيَب في الحال؟ أكان جميع العاملين إذاً مجرد أوغاد؟ ألم يكن بينهم إنسان مخلص متفانٍ، إذا أضاع بضع ساعات ذات صباح استبدّ به تعذيب الضمير إلى حدّ يفقده صوابه ويجعله غير قادر حقاً على مغادرة فراشه؟ ألم يكن كافياً إرسال أحد الفتيان ممن هم تحت التمرين للاستطلاع ـ إذا كان لا بد من الاستطلاع؟ أكان من الضروري أن يجيء كبير الموظفين بنفسه، مظهراً بذلك للأسرة البريئة بكاملها أنه لا يمكن أن يُعهد بفحص هذه الحالة المريبة إلا إلى حنكة كبير الموظفين؟ وبسبب من الاضطراب الذي أحدثته هذه التأملات أكثر

منه بسبب من قرار سليم، قفز غريغور من السرير بكامل قوته. كان ثمة لطمة مدوّية، ولكنها لم تكن قرقعة حقيقية. لقد أخمد البساط سقوطه إلى حد ما؛ وإلى هذا، فقد كان ظهره أكثر مرونة مما كان قد ظنّ، ومن هنا جاء الصوت المكتوم الذي لا يلفت الانتباه كثيراً. بيد أنه لم يكن قد رفع رأسه في عناية وافية، فاصطدم بالأرض. وأداره فوق البساط وراح يحكّه به في وجع وانزعاج.

وقال كبير الموظفين في الغرفة الملاصقة إلى اليسار: «لقد سقط شيء ما في الداخل». وحاول غريغور أن يتصور فيما إذا لم يكن من الممكن أن يحدث يوماً ما لكبير الموظفين ما حدث له اليوم؛ وفي الحقيقة ينبغي على المرء أن يعترف بإمكانية حدوث ذلك. وكأن كبير الموظفين كان يجيب على هذا السؤال إجابة فظة، خطا بضع خطوات ثابتة في الغرفة الملاصقة، وترك حذاءه المصنوع من جلد لمّاع يصرّ. ومن الغرفة اليمنى كانت الأُخت تهمس لتُعلمه: «غريغور، إن كبير الموظفين هنا». وغمغم غريغور بينه وبين نفسه: «أدري». ولكنه لم يجرؤ على أن يرفع صوته إلى حدّ يمكّن الأخت من سماعه.

وقال الوالد، الآن، من الغرفة اليسرى: «غريغور، لقد جاء السيد كبير الموظفين، وهو يسأل لماذا لم تسافر بالقطار المبكر. نحن لا ندري ما الذي يجب أن نقوله له. وإلى هذا، فهو يريد أن يتحدث معك شخصياً. وهكذا، افتح الباب، أرجوك. إنه سوف يتكرّم ويغض النظر عن فوضى غرفتك». وفي غضون ذلك نادى كبيرُ الموظفين محيياً بلطف: «صباح الخير، أيها السيد سامسا». وقالت الأم للزائر، فيما كان الوالد لا يزال يتحدث من خلال الباب: «إنه ليس بخير. لقد أصابته وعكة. صدقني أيها السيد. وأي شيء غير المرض يمكن أن يفوّت عليه القطار! الفتى لا يفكر إلا بعمله. ومما يكاد يزعجني أنه لا يخرج إلى السهر أبداً. إنه الآن في المدينة منذ ثمانية أيام، لكنه ظل في البيت كل مساء. إنه يجلس لدينا في هدوء إلى المائدة، يطالع جريدة، أو يتصفح لوائح مواعيد القطارات. ومما يسلّيه هو أن يستخدم منشار الزخرفة. لقد أنفق ـ مثلاً ـ أمسيتين أو ثلاث أمسيات وهو يصنع إطاراً صغيراً للصور، ولسوف تعجب حين ترى مدى جمال ذلك الإطار. إنه معلق في غرفته. وسوف تراه على الفور حين يفتح

غريغور الباب. وللمناسبة، إنني سعيدة بمجيئك، يا سيدي، إذ كان خليقاً بنا أن نعجز عن أن نحمله وحدنا على فتح الباب؛ إنه عنيد جداً. ومن المؤكد أنه يشكو مرضاً ما، وإن كان قد أنكر ذلك هذا الصباح». «أنا قادم في الحال»، كذلك قال غريغور ببطء وتأنٍ، ولم يتحرك خشية أن تفوته كلمة من الحديث. وقال كبير الموظفين: «وأنا أيضاً، يا سيدتي، لا أستطيع تفسير الأمر تفسيراً آخر. وآمل ألّا يكون مرضه خطيراً. على الرغم من أنه يتعيّن عليّ، من ناحية ثانية، أن أقول إننا نحن رجال الأعمال ـ لحسن الحظ أو لسوئه، كما تشائين ـ كثيراً ما يتحتّم علينا أن نتجاهل ببساطة الوعكةَ الخفيفةَ، لأسباب تتعلق بالعمل». وسأل الوالدُ، وقد نفد صبره، قارعاً الباب من جديد: «حسناً، هل يستطيع السيد كبير الموظفين أن يدخل الآن؟» «لا»، قال غريغور. وفي الغرفة اليسرى، تبعَ هذا الرفضَ صمتٌ أليم. وفي الغرفة اليمنى بدأت الأخت تنتحب.

لماذا لم تنضمّ الأخت إلى الآخرين؟ لعلها كانت قد نهضت الآن من فراشها ولمّا تبدأ بعد في ارتداء ملابسها. حسناً، ولماذا كانت تبكي؟ لأنه لم ينهض من فراشه، ولم يدع كبير الموظفين يدخل، لأنه مهدد بأن يخسر وظيفته، ولأن كبير الموظفين سيعود إلى ملاحقة الوالدين ويطالبهما بالديون القديمة؟ لا ريب في أن هذه كانت أموراً لا داعي لأن تثير قلق المرء في الوقت الحاضر. كان غريغور لا يزال في البيت، ولم يكن يفكر أقل التفكير في التخلي عن أسرته. صحيح أنه كان مستلقياً، في اللحظة الحاضرة، على البساط، وكل من يعرف بالحال التي هو عليها خليق به أن لا يتوقع منه، جدياً، السماحَ لكبير الموظفين بالدخول. ولكن غريغور لا يمكن أن يُسَرَّح من عمله، في الحال، بسبب من هذه الفظاظة الطفيفة التي سيمكن، في ما بعد، إيجاد عذر لها مناسب. ولقد بدا لغريغور أنه من الحكمة أكثر أن يُترك بسلام بدلاً من إزعاجه بالعبرات والتوسلات. لكن حالة الغموض وعدم التأكد هي التي ضيّقت على الآخرين وبررت مسلكهم.

وناداه كبير الموظفين، وقد علا صوته هذه المرة: «أيها السيد سامسا، ماذا أصابك؟ إنك تتمترس في غرفتك، لا تجيب إلا بـ نعم أو لا، مسبّباً لوالديك كثيراً من الجزع في غير ضرورة، ومتجاهلاً ـ وأنا أشير إلى هذا عَرَضاً ليس أكثر ـ

واجباتك في العمل بطريقة فاضحة حقاً لا تُقبل. أنا أتكلم هنا باسم والديك وباسم رئيسك، وأرجوك بكل جدية أن تقدم تفسيراً عاجلاً وواضحاً. إنك تذهلني، إنك تذهلني! لقد حسبتُ أنك إنسان هادئٌ عاقل، والآن يبدو أنك تريد أن تبدأ فجأة في عرض نزوات غريبة. صحيح أن الرئيس ألمح لي صباح اليوم تفسيراً محتملاً لتأخرك ـ يتعلق بالتحصيل الذي عُهد به إليك مؤخراً ـ ولكني كدت أقسم يميناً غليظة بأنه لا يمكن لهذا التفسير أن يكون صحيحاً. أما الآن فإني أرى عنادك غير القابل للفهم، وأفقد كل رغبة في الدفاع عنك أقل قدر من الدفاع. ووظيفتك ليست أكثر وظيفة ثباتاً. وفي الأصل كنت أنوي أن أخبرك هذا كله على انفراد، أما وقد عمدتَ إلى إضاعة وقتي على غير جدوى، فلا أدري لمَ لا ينبغي لوالديك أن يعلما ذلك أيضاً. إن إنجازاتك كانت في المدة الأخيرة غير مُرضية إلى أبعد الحدود. صحيح أن هذا الفصل ليس فصل ازدهار في الأعمال التجارية، نحن نقرّ بذلك طبعاً، ولكن ليس ثمة فصل في السنة ينعدم فيه النشاط التجاري بالمرة. مثل هذا الفصل لا يوجد أبداً، ولا يجوز أن يوجد، أيها السيد سامسا».

فصاح غريغور وقد فقد اتزانه ونسي، في اهتياجه، كل شيء آخر: «ولكن، يا سيدي، سوف أفتح الباب حالاً وفوراً. إن وعكة بسيطة، نوبة دُوَار قد حالت بيني وبين النهوض من الفراش. ما زلت مستلقياً في السرير. ولكني أشعر أني استعدت نشاطي الآن. سوف أفارق السرير تواً. ولكن صبراً لحظة واحدة فقط! ما زال الأمر لا يسير جيداً كما حسبت. ولكني بخير. كيف يستطيع هذا أن يداهم المرء! مساء البارحة ليس غير، كنت في خير حال، ووالداي يعرفان ذلك؛ أو بدقة أكثر، مساء البارحة كنت أشعر شعوراً طفيفاً بالشؤم. ولا ريب في أنه قد ظهرت عليّ بعض أمارات ذلك. إنما لماذا لم أعلم الشركة بذلك! ولكن المرء يحسب دائماً أنه سوف يتغلب على المرض من غير أن يلزم البيت. أوه، يا سيدي، ارفق بوالديّ! كل ما تعنّفني من أجله ليس له أساس. ولم يقل لي أحد كلمة واحدة قط في هذا الموضوع. ولعلك لم تقرأ الطلبيات الأخيرة التي أرسلتها. وعلى أية حال، سأنطلق مسافراً بقطار الساعة الثامنة؛ وهذه الساعات

القليلة من الراحة زادت من قوتي. لا تدعني أؤخرك هنا، يا سيدي. بعد قليل سوف أذهب بنفسي إلى الشركة؛ وأرجو أن تتكرم وتبلغ ذلك، وأن تقدم أعذاري إلى السيد الرئيس!»

وفيما كان غريغور يطلق هذا كله كيفما اتفق ومن غير أن يدري ما الذي كان يقوله، أو يكاد، كان قد انتهى إلى صندوق السرير في يسر، ولعلّ مردّ ذلك إلى التدّرب الذي تمّ له في الفراش؛ وراح الآن يحاول أن يرفع نفسه مستنداً على الصندوق ليقف منتصب القامة. كان يعتزم أن يفتح الباب فعلاً، ويدع الآخرين يرونه فعلاً، ويتحدث إلى كبير الموظفين. كان تواقاً إلى أن يكتشف ما الذي سوف يقوله الآخرون، بعد إلحاحهم كله، عندما تقع أبصارهم عليه. فإذا استبد بهم الروع، فعندئذ لا يعود هو المسؤول، ويكون في ميسوره أن يبقى مطمئناً. أما إذا تقبّلوا الأمر في هدوء، فعندئذ لا يكون لديه أيضاً أي داع للقلق، ويكون في مقدوره، إذا ما أسرع، أن يكون في المحطة في الساعة الثامنة فعلاً. في بادئ الأمر انزلق عدة مرات عن سطح الصندوق المصقول، ولكنه أخيراً أعطى نفسه دفعة أخيرة، ووقف منتصباً. إنه لم يعد يبالي بالآلام في بطنه، مهما كانت موجعة. ثم إنه ترك نفسه يسقط على ظهر كرسي قريب، وتعلّق بأرجله الصغيرة بأطراف ذلك الكرسي. ومكّنه ذلك من أن يسيطر على نفسه كرة أخرى. ولاذ بالصمت، إذ أمسى في مقدوره الآن أن يصغي إلى ما يقوله كبير الموظفين.

«هل فهمتما كلمة واحدة من هذا؟» كذلك سأل كبيرُ الموظفين الوالدين، «هل هو يستغفلنا؟» فصاحت الأم، وقد انخرطت في البكاء: «لا سمح الله! لعله يشكو مرضاً فظيعاً، ونحن نعذّبه». ثم إنها نادت: «غرته! غرته!» فصاحت الأخت من الجانب الآخر: «نعم، يا أمي؟» كانتا تتخاطبان عبر غرفة غريغور. «عليك أن تذهبي إلى الطبيب في الحال. غريغور مريض. أسرعي وأحضري الطبيب. أسرعي. هل سمعت الآن غريغور يتكلم؟» وقال كبير الموظفين في صوت خفيض على نحو واضح بالقياس إلى صراخ الأم: «كان هذا الصوت صوت حيوان». ونادى الوالدُ عبر الرواق إلى المطبخ، وهو يصفق بيديه: «أنّا! أنّا! استدعِ على الفور صانع أقفال!» وعلى التو جرت الفتاتان عبر الرواق، وكان

لتنّورتيهما حفيف - كيف استطاعت الأخت أن ترتدي ملابسها بهذه السرعة؟ - وفتحتا باب المنزل على آخره. ولم يكن ثمة صوت يؤذن بإغلاقه من جديد. كانتا قد تركتاه مفتوحاً من غير ريب، كما يفعل المرء في البيوت التي ألمّت بها كارثة كبيرة.

ولكن غريغور كان الآن أكثر هدوءاً. صحيح أنهم لم يعودوا يفهمون كلماته إذاً، على الرغم من أنها بدت له واضحة بما فيه الكفاية، بل أكثر وضوحاً من ذي قبل، ربما نتيجة اعتياد أذنه عليها. لكن على كل حال أصبح الآخرون يعتقدون الآن أن أحواله ليست على خير ما يرام، وأنهم لعلى استعداد لمساعدته. وقد أراحته الثقة والطمأنينة اللتان اتُّخذت بهما الإجراءات الأولى. لقد استشعر أنه عاد لتشمله الدائرة الإنسانية من جديد، وراح يأمل من الاثنين، الطبيب والحداد، من غير أن يميز بينهما في الواقع تمييزاً دقيقاً، أن يقوما بأعمال عظيمة مذهلة. ولكي يجعل صوته واضحاً إلى أقصى حد مستطاع للاشتراك في المحادثات الحاسمة التي كانت قد أمست الآن وشيكة، سعل بعض الشيء مصفّياً حنجرته، لكن في أقصى ما استطاع من خفوت، وذلك لأن هذا الصوت أيضاً قد لا يبدو شبيهاً بالسعال البشري، الأمر الذي لم يعد يجرؤ على أن يجزم فيه بنفسه. وفي الغرفة المجاورة كان يرين، خلال ذلك، صمت كامل. لعل الوالدين كانا جالسين إلى الطاولة يتهامسان مع كبير الموظفين. أو لعلهم كانوا كلهم متكئين على الباب يسترقون السمع.

وفي بطء، دفع غريغور نفسه مع الكرسي نحو الباب، ثم ترك الكرسي هناك، وألقى بنفسه على الباب، واتكأ عليه واقفاً - كانت أطراف أرجله الصغيرة دبقة بعض الشيء - واستراح لحظة بعد جهوده تلك. لكنه شرع بعد ذلك بإدارة المفتاح في القفل بفمه. وبدا للأسف أنه لم يعد يملك أسناناً حقيقية - بأي شيء يمكنه أن يمسك المفتاح؟ - ولكن فكيه كانا من ناحية ثانية قويين جداً من غير شك. وبمساعدتهما حرك المفتاح فعلاً، غير مبالٍ بأنه كان بلا ريب يؤذي نفسه بشكل أو بآخر، إذ انبثق من فمه سائل أسمر، وجرى على المفتاح، وراح يقطُر فوق أرض الحجرة. وقال كبير الموظفين في الغرفة المجاورة: «اسمعوا! اسمعوا! إنه

يدير المفتاح!» وكان في ذلك تشجيع كبير لغريغور. ولكن كان يتعين عليهم جميعاً، الأب والأم أيضاً، أن يصيحوا ابتغاء تشجيعه: «هيا يا غريغور!» كان يتعين عليهم أن يصيحوا: «تابع يا غريغور، تابع، وتشبث بالقفل!»

وتصور أنهم كلهم كانوا يتابعون جهوده في انتباه بالغ، وأطبق فكيه بلا وعي على المفتاح، بكل ما كان يملك من قوة. وبقدر ما كان المفتاح يدور، كان هو يدور حول القفل، متمسكاً الآن بفمه ليس غير، متعلقاً بالمفتاح أو، تبعاً للحاجة، جاذباً إياه إلى أدنى، كرة أخرى، بكامل ثقل جسده. والحق أن قرقعة القفل الذي انفتح أخيراً أحيت غريغور إحياءً. فقد تنفس الصعداء، وقال في ذات نفسه: «وهكذا لم أحتج إلى صانع أقفال». ووضع رأسه على المقبض ليفتح الباب على مصراعيه.

وإذ كان عليه أن يفتح الباب بهذه الطريقة، فقد ظل غير منظور عندما فتح الباب فعلاً. وكان عليه أن يدور في بطء حول أحد المصراعين، وأن يفعل ذلك بكثير من الحذر إذا لم يشأ، قبل دخوله الغرفة الأخرى مباشرة، أن يسقط على ظهره بشكل أخرق. وكان لا يزال مشغولاً بتلك الحركة العسيرة، من غير أن يجد متسعاً من الوقت لملاحظة أي شيء آخر، عندما سمع كبيرَ الموظفين يطلق «أوه» صارخة - لقد بدت أشبه بهبّة ريح - ورآه الآن أيضاً، هو الأقرب إلى الباب، كيف وضع إحدى يديه على فمه الفاغر، وتراجع إلى الوراء في بطء، وكأن قوة خفية فعالة باستمرار وانتظام تدفعه أمامها. أما الأم - التي كانت، رغم وجود كبير الموظفين، تقف هنا بشعر غير مسرّح منذ الليل منفوش إلى أعلى - فإنها نظرت أول الأمر إلى الأب وقد شبكت يديها، ثم خطت خطوتين باتجاه غريغور، وخرّت على الأرض وسط تنانيرها المنتشرة حولها، وقد خفضت وجهها إلى صدرها حتى حُجب كلية. وكوّر الأب قبضة يده، وقد طغت على وجهه سيماء ضارية، وكأنما كان يريد أن يلكم غريغور راداً إياه إلى غرفته، ثم جال ببصره بتردد في غرفة الجلوس، وحجب عينيه بيديه، وبكى حتى خفق صدرُه الضخم.

ولم يدخل غريغور إلى حجرة الجلوس، ولكنه اتكأ على الجزء الداخلي من مصراع الباب الموصد بإحكام، بحيث لم يكن يُرى من جسمه سوى النصف وفوقه الرأس المحنيّ جانباً والذي راح ينظر منه إلى الآخرين نظرة استطلاع وترقّب. في غضون ذلك كان الضياء قد تعاظم. وعلى الجانب الآخر من الشارع كان في ميسور المرء أن يرى في وضوح جزءاً من البناء المواجه الرمادي القاتم - كان مستشفى - الطويل على نحو لا نهائي، والمنقّط بصفوف نوافذه المنتظمة. كان المطر لا يزال يهطل، ولكن فقط في قطرات كبيرة تُرى على نحو مفرد، وتحدث رشاشاً مفرداً بالمعنى الحقيقي. وكانت أطباق الفطور قد وُضعت على المائدة في إسراف، لأن طعام الصباح كان أهم وجبة من وجبات اليوم بالنسبة للوالد، الذي اعتاد أن يتمهّل به ساعاتٍ يقضيها في مطالعة مختلف الصحف. وعلى الجدار المواجه علقت صورة لغريغور من فترة خدمته العسكرية، تمثله ملازماً يضع يده على مقبض سيفه، وتعلو وجهه ابتسامة مطمئنة، ويستوجب الاحترام لوقفته وبزّته. كان الباب المؤدي إلى الرواق مفتوحاً، وإذ كان باب المنزل مُشرعاً أيضاً، فقد كان في ميسور المرء أن يرى منبسط الدرَج وبداية السلّم الهابطة.

وقال غريغور، وهو يعلم أنه الوحيد الذي كان قد احتفظ بالهدوء: «حسناً، سوف أرتدي ملابسي في الحال، وأحزم عيّناتي، وأسافر. هل تريدون، هل تريدون أن تتركوني أسافر؟ حسناً، أيها السيد كبير الموظفين، ها أنت ترى أنني لست عنيداً، وأني لراغب في العمل. إن السفر شاق، لكني لا أستطيع أن أعيش من دونه. إلى أين أنت ذاهب، أيها السيد كبير الموظفين؟ إلى المكتب؟ نعم؟ هل ستروي كل هذا رواية صحيحة؟ يمكن للمرء أن يكون في هذه اللحظة عاجزاً عن العمل. لكن هذا هو بالذات الوقت المناسب لتذكّر خدماته السابقة، ولتذكّر أن المرء، حين إزالة العائق، سوف يعمل من غير شك في جدّ أكثر وتركيز أكبر. إنني مدين بالكثير للسيد الرئيس، وأنت تعرف ذلك معرفة جيدة. ومن طرف آخر عليّ أن أكفل الرزق لوالديّ ولأختي. إنني في مأزق، لكنني سوف أتخلص منه. لا تزِدْ الأمور صعوبة عليّ أكثر مما هي عليه الآن. انتصِر لي في المؤسسة.

أعرف أن المندوب التجاري المتجول غير محبوب هناك. يحسبون أنه يكسب أموالاً طائلة ويعيش حياة جميلة. ولا يرون موجباً خاصاً لإعادة النظر في هذا الحكم المسبق. أما أنت، أيها السيد كبير الموظفين، فإن لك نظرة واضحة في الأحوال أفضل من نظرات سائر رجال الشركة. أجل، ودَعْني أقول لك، بيني وبينك، إن نظرتك أفضل من نظرة الرئيس نفسه، الذي - بوصفه صاحب الشركة - يجيز لحكمه أن ينحرف بسهولة ضد واحد من مستخدميه. وأنت تعلم جيداً أن المندوب التجاري المتجول الذي يكون خارج الشركة طوال العام تقريباً، يمكن أن يسقط بسهولة ضحية القيل والقال والمصادفات والشكاوى التي لا تقوم على أساس، والتي يستحيل عليه أن يرد عليها، وذلك لأنه لا يعرف عنها في الأغلب شيئاً ما، وإن سمع شيئاً لا يسمع إلا عندما يكون قد أنهى، وهو خائر القوى، إحدى سفراته، فيلمس عن كثب النتائج السيئة التي لم يعد بالإمكان الكشف عن أسبابها. أيها السيد كبير الموظفين، لا تذهب من غير أن تقول لي كلمة تبيّن لي أنك تراني مصيباً إلى حد صغير على الأقل».

ولكن ما أن لفظ غريغور أولى كلماته حتى كان كبير الموظفين قد استدار، وانفرجت شفتاه، ولم يعد ينظر وراءه إلا من فوق كتفه التي راحت ترتجف. وفيما كان غريغور يتكلم، لم يقف ساكناً لحظة واحدة، بل راح، من غير أن يرفع عينيه عن غريغور، يتراجع نحو الباب تراجعاً تدريجياً كلية، وكأن هناك حظر سري على مغادرة الغرفة. كان قد انتهى، الآن، إلى الرواق، وكانت الحركة الفجائية التي خطا بها خطوته الأخيرة خارج حجرة الجلوس تجعل المرء يعتقد بأنه قد أحرق أخمص قدميه. لكنه في الرواق بسط يده اليمنى، أمامه، نحو السلّم، وكأن إنقاذاً خارقاً ينتظره هناك.

وأدرك غريغور أنه لا يجوز له بأي حال من الأحوال أن يدع كبير الموظفين يمضي وهو على تلك الحالة النفسية، إذا كان لعمل غريغور في الشركة أن لا يتعرض لأعظم الخطر. إن الوالدين لم يفهما ذلك فهماً حسناً؛ كانا قد كوّنا لنفسيهما، على مرّ الأعوام، اقتناعاً بأن غريغور قد استقرّ إلى نهاية العمر في هذه الشركة، وإلى هذا فقد كانا الآن مستغرقين في المتاعب الحاضرة إلى حدّ جعلهما

يفقدان بعد النظر. لكن غريغور كان يملك بعد النظر هذا. إن كبير الموظفين يجب أن يُمسك، أن يُهدَّأ، أن يُقنع، وأخيراً أن يُكتَسَب، فمستقبل غريغور ومستقبل أسرته يتوقفان على هذا! ليت الأخت كانت هنا! لقد كانت ذكية، كانت قد بدأت تبكي فيما كان غريغور لا يزال مستلقياً على ظهره في سكينة. ولا ريب في أن كبير الموظفين، هذا الرجل المحب للنساء، كان خليقاً أن يخضع لتوجيهها. كانت خليقة بأن توصد باب المنزل، وأن تحدثه في الرواق حديثاً يبدد ما استولى عليه من رعب. لكن الأخت لم تكن هنا، وكان على غريغور أن يعالج الموقف بنفسه. ومن غير أن يفكر بأنه ما زال لا يعرف قدراته الحالية على الحركة، ومن غير أن يفكر أيضاً أنه من الممكن لا بل من المرجح أن كلامه لم يُفهم مرة أخرى، أفلت مصراع الباب، ودفع نفسه من خلال الفتحة، وأراد أن يمشي نحو كبير الموظفين، الذي كان قد بدأ يتشبث، على نحو مضحك، بكلتا يديه، بالدرابزين المحيط بمنبسط السلّم. ولكن غريغور سقط في الحال على أرجله المتعددة، وهو يلتمس سناداً ما ويطلق صيحة طفيفة. وما أن خرّ على الأرض حتى استشعر، للمرة الأولى ذلك الصباح، حسّاً بالراحة الجسدية. كانت الأرض ثابتة تحت أرجله؛ وكما لاحظ في بهجة أن تلك الأرجل كانت مطواعة بشكل كامل، بل إنها كانت تسعى كي تحمله إلى أمام، حيثما أراد. وهنا أصبح يعتقد بأن الشفاء النهائي من كل ما يعانيه إنما أصبح وشيكاً. ولكن في اللحظة نفسها التي كان يستلقي فيها على أرض الحجرة، مهتزاً في حركة مكبوتة، غير بعيد عن أمه، وتجاهها تماماً، وثبت هي، التي كانت قد بدت غارقة في أفكارها، وثبت على قدميها فجأة، وقد مدّت ذراعيها وبسطت كفّيها، وصاحت: «العون، إكراماً لله، العون!» وتركت رأسها منكّساً، وكأنما تريد أن ترى غريغور على نحو أفضل؛ لكنها، في حركة مناقضة لذلك، ارتدّت إلى الوراء بلا غرض؛ وكانت قد نسيت أن الطاولة المجهّزة بطعام الفطور قائمة خلفها، وحين وصلت إليها جلست عليها في عجلة، وكان الذهول قد ران عليها. ولم يبد أبداً أنها لاحظت أن إبريق القهوة الكبير القريب منها كان مقلوباً، والقهوة تفيض منه على البساط فيضاً.

وقال غريغور في صوت خفيض: «أماه! أماه!» ونظر إليها. كان كبير الموظفين قد بارحَ ذهنه، للحظة، مبارحةً تامة. وبدلاً من ذلك، لم يستطع، متأثراً من منظر القهوة المسفوحة، أن يحبس نفسه من أن ينهش بفكّيه في الفراغ عدة مرات. فصرخت الأم من جديد، وفرّت بعيداً عن الطاولة، وسقطت بين ذراعي الأب، الذي كان مسرعاً نحوها. ولكن لم يكن لدى غريغور، الآن، وقت من أجل والديه. كان كبير الموظفين قد انتهى إلى السلم، وكان يلتفت وذقنه على الدرابزين، التفاتة أخيرة إلى الوراء. وتحفّز غريغور كي يلحق به بشكل مضمون ما أمكن. ولا شك في أن كبير الموظفين قد أحس إحساساً داخلياً بما يجول في خَلَد غريغور؛ ذلك أنه وثب هابطاً عدة درجات وغاب عن البصر، كان لا يزال يصيح «هوو!» علامة الخوف والاشمئزاز، وكان صياحه ذاك يتردد صداه في السلم كله. وللأسف بدا هذا الفرار لكبير الموظفين وكأنه قد أشاع الاضطراب إشاعة كاملة في نفس والد غريغور، الذي كان قد احتفظ حتى تلك اللحظة بهدوء نسبي. ذلك أنه بدلاً من أن يلحق هو نفسه بالرجل، أو لا يحول ـ على الأقل ـ بين غريغور وبين اللحاق به، قبض بيده اليمنى على عصا كبير الموظفين التي كان هذا قد خلّفها مع قبعته ومعطفه على أحد الكراسي، كما انتزع بيده اليسرى صحيفة كبيرة عن الطاولة، وشرع، وهو يخبط الأرض بقدميه، يلوّح بالعصا والصحيفة كي يطرد غريغور إلى حجرته. ولم تُجدِ توسلات غريغور البتة؛ في الواقع إن أياً من توسلات غريغور لم يكن مفهوماً مجرد فهم. كان كلما أمعن في تنكيس رأسه بِضِعةٍ، أمعن الوالد في خبط الأرض بقدميه على نحو أكثر عنفاً. وفي الجانب الآخر كانت الأم قد فتحت إحدى النوافذ، على الرغم من الجو البارد، وكانت تمعن في الانحناء إلى خارجها وقد طوّقت وجهها بيديها. وبين الشارع والسلّم نشأ تيار هوائي قوي، وتماوجت الستائر إلى داخل الغرفة، وحفّت الصحف على الطاولة، وتطايرت صفحات فوق أرض الحجرة. وفي قسوة لا تعرف الرحمة، ردّه الوالد إلى الوراء، وهو يطلق أصوات فحيح كالمتوحش. ولكن غريغور لم يكن متمرناً على السير إلى الوراء أبداً. وحقاً جرى الأمر ببطء شديد. ولو كان يجوز لغريغور أن يستدير وحسب، إذاً لكان في ميسوره أن يرتد إلى غرفته في الحال، ولكنه كان يخشى أن يثير نفاد صبر الوالد

ببطء ذلك الدوران؛ وفي كل لحظة كانت العصا بيد الوالد تهدده بضربة قاضية على ظهره أو على رأسه. بيد أنه لم يبق له، آخر الأمر، ما يفعله غير ذلك، إذ إنه لاحظ ـ ويا لهول ما لاحظ! ـ أنه في تحركه إلى الوراء لم يكن قادراً حتى على المحافظة على الاتجاه الذي اتخذه. وهكذا شرع، وهو يلقي إلى الوالد نظرات جانبية خائفة متواصلة، يستدير بأسرع ما يستطيع، وكان ذلك في الواقع بطيئاً جداً. ولعل الوالد لاحظ نيته الطيبة، ذلك أنه لم يزعجه، بل إنه راح بين الفينة والفينة يوجه حركة الدوران من بعيد، وبطرف عصاه. لو لم يكن فقط هذا الفحيح الذي لا يطاق والذي يطلقه الوالد! لقد أفقد هذا الفحيح غريغور صوابه كله. كان قد أتم الاستدارة، أو كاد، عندما أخطأ ـ وهو يسترق السمع باستمرار إلى هذا الفحيح ـ إلى حد جعله يعاود الدوران، بعض الشيء، في الاتجاه الخاطئ. ولكن حينما أصبح برأسه آخر الأمر أمام فتحة الباب، وهو سعيد، تبيّن أن جسده أعرض من أن يجتاز الفتحة في يُسر. وكان الوالد أبعد ما يكون طبعاً عن أن يخطر بباله، وهو في حالته النفسية تلك، أن يفتح، مثلاً، المصراع الآخر للباب، كي يوفر لغريغور ممراً كافياً. وكانت فكرته الراسخة هي أنه يجب على غريغور أن يعود إلى غرفته بأسرع ما يمكن. وما كان من شأن الوالد، بحال من الأحوال، أن يسمح بالاستعدادات المعقدة التي احتاجها غريغور للوقوف على نحو منتصب، وربما للانسلال عبر الباب بهذه الطريقة. بل الأرجح أنه ساق الآن غريغور إلى الأمام بصخب خاص، وكأن ما من ثمة عائق. ووراء غريغور لم يعد الصوت يقع مثل صوت والد واحد؛ ولم يعد يوجد، في الحق، مزاح، ودفع غريغور نفسه ـ وليكن ما يكون ـ عبر الباب. لقد ارتفع جانب من جسده، الذي كان يقع مائلاً في فتحة الباب. وخُدِش أحد جانبيه خدشاً كثيراً، وظلت على الباب الأبيض لطخات بشعة. وسرعان ما تثبّت وأعيق عن الحركة، ولم يعد من شأنه أن يتمكن من الحركة وحده، وحامت أرجله، من جانب، مرتعشة في الهواء. أما أرجل الجانب الآخر فقد ضُغطت على الأرض بألم ـ عندما دفعه الوالد، من خلف، دفعةً قوية، كان فيها خلاصه حقاً. فارتمى بعيداً في قلب الغرفة، وقد أخذ الدم يتدفق منه. وأُغلِق الباب خلفه، بالعصا، إغلاقاً عنيفاً، ورانَ الصمت آخر الأمر.

٢

ولم يستيقظ غريغور، إلا مع الغسق، من نوم عميق كان أشبه بالإغماء منه بالرقاد. ولا ريب في أنه كان من شأنه أن يستيقظ قريباً دون إزعاج أيضاً، ذلك أنه استشعر أنه قد نال قسطاً كافياً من الراحة وشبع نوماً؛ ولكن بدا له أن خطوة خفيفة وإغلاقاً حذِراً للباب المؤدي إلى الرواق قد أيقظاه من سباته. وكانت مصابيح الشارع الكهربائية تلقي ضوءاً خافتاً هنا وهناك على سقف الغرفة والأجزاء العليا لقطع الأثاث، أما في الأسفل عند غريغور، فكان الظلام مخيماً. وببطء دفع نفسه، دون أن يكون قد اكتسب مهارة بعد، وراح يتلمس طريقه بملامسه التي تعلّم الآن للمرة الأولى كيف يقدرها حق قدرها، دفع نفسه نحو الباب ليرى ما الذي كان يحدث هناك. وبدا جنبه الأيسر مثل ندبة واحدة طويلة، مُوَتَّرةٍ على نحو بغيض، وكان عليه في الواقع أن يعرج على صَفَّي أرجله. وفوق هذا، فإن إحدى أرجله الصغيرة كانت قد جرحت جرحاً بالغاً خلال أحداث ذلك الصباح ـ وإنها لتكاد تكون معجزةً أنه لم تجرح سوى رجل واحدة ليس غير ـ وانسحبت خلفه عديمة الإحساس.

كان قد انتهى إلى الباب قبل أن يكتشف ما الذي ساقه، في الحق، نحوه: رائحة شيء يؤكل. إذ إنه كان ثمة وعاء مليء بحليب حلو طَفَت فيه قطع صغيرة من الخبز الأبيض. وكاد يضحك في ابتهاج، إذ كان الآن أكثر جوعاً مما كان في الصباح، وعلى الفور غمس رأسه في الحليب إلى ما فوق عينيه تقريباً. ولكنه ما لبث أن ردّه، في خيبة أمل، إلى الوراء. إنه لم يجد أن من العسير عليه أن يتناول الطعام بسبب من جنبه الأيسر العليل وحسب ـ ولم يكن في وسعه أن

يتناول الطعام إلا بتعاون جسده اللاهث كله ـ بل إن الحليب لم يلذّ له أبداً، على الرغم من أن الحليب كان دائماً شرابه المفضّل، والذي وضعته له الأخت لهذا السبب ولا ريب. والحق، أنه استدار نائياً بنفسه عن الوعاء، في ما يشبه التقزّز، ودبّ راجعاً إلى منتصف الغرفة.

وكما رأى غريغور من خلال شق الباب، كان الغاز مضاءاً في غرفة الجلوس. ولكن بينما كان من عادة الوالد أن يقرأ، في مثل هذا الوقت، جريدته التي تصدر بعد الظهر، يقرأها بصوت مرتفع للأم وفي بعض الأحيان للأخت أيضاً، فإنه لم يكن يُسمع الآن صوت ما. حسناً، لعل عادة القراءة الصوتية هذه، التي كثيراً ما حدثته الأخت وكتبت له عنها، قد توقفت عامة في المدة الأخيرة. ولكن الصمت كان يخيّم على الغرف الأخرى أيضاً، على الرغم من أن البيت لم يكن خالياً من السكان على وجه التأكيد. وقال غريغور في ذات نفسه: «أي حياة هادئة كانت الأسرة تحياها!» وفيما هو، من غير حراك، يحدق في الظلام، استشعر فخراً عظيماً لكونه قد استطاع أن يكفل لأبويه ولأخته مثل هذه الحياة في مثل هذه الشقة الجميلة. ولكن كيف يكون الحال إذا قدّر لكل ذلك الهدوء، والرفاه، والرضا، أن ينتهي نهاية فيها ذعر؟ ولكي يقي نفسه من الضياع في مثل هذه الأفكار، فزع غريغور إلى الحركة وراح يدبّ في الغرفة جيئة وذهاباً.

ومرة خلال المساء الطويل فُتح أحد الأبواب الجانبية، ومرة فُتح الباب الآخر بعض الشيء، ثم أغلقا بسرعة. يبدو أن شخصاً قد أراد الدخول، ثم آثر العدول عن ذلك. والآن توقف غريغور تجاه باب حجرة الجلوس مباشرة، مصمماً على إدخال الزائر المتردد بأية وسيلة؛ أو على الأقل معرفة من هو. ولكن الباب لم يُفتح مرة ثانية، وراح غريغور ينتظر على غير طائل. في الصباح الباكر، حين كانت الأبواب موصدة، كان الجميع يريدون أن يدخلوا إليه. أما الآن، وقد فَتَح باباً، وبدا أن الأبواب الأخرى قد فتحت في أثناء النهار، فإن أحداً لم يأت، بل إن المفاتيح كانت توجد في الأقفال من الخارج.

ولم يطفأ الضوء في حجرة الجلوس إلا في ساعة متأخرة من الليل، وكان من

السهل الآن ملاحظة أن الوالدين والأخت كانوا قد ظلوا أيقاظاً حتى تلك اللحظة، ذلك أنه كان يمكن سماع الثلاثة، في وضوح، ينسلّون على رؤوس أصابعهم. والآن أصبح من المؤكد أن ما من أحد سيدخل إلى غريغور حتى الصباح. وهكذا كان أمامه متسع من الوقت للتفكير بهدوء كيف ينبغي عليه الآن أن ينظم حياته تنظيماً جديداً. ولكن الحجرة الفارغة عالية السقف التي كان مرغماً عليه أن ينبطح فيها على الأرض أثارت الخوف في نفسه، دون أن يستطيع الاهتداء إلى سبب ذلك، فقد كانت هي غرفته التي يسكن فيها منذ خمس سنوات. وفي حركة دوران لاواعية تقريباً، وليس دون شعور طفيف بالخجل، خفّ إلى تحت الكنبة، حيث استشعر في الحال راحة كبيرة، برغم أن ظهره كان قد ضُغط عليه بعض الشيء، وعلى الرغم من أنه ما عاد يستطيع أن يرفع رأسه إلى أعلى، ولم يأسف لشيء إلا لأن جسده كان أعرض من أن يلجَ به كله تحت الكنبة.

وهناك ظل طوال الليل، الذي أنفقه حيناً في رقاد خفيف، ما فتأ الجوع يوقظه منه ويفزعه، وحيناً في قلق وفي رسم آمال غامضة كانت كلها تقود إلى النتيجة نفسها: أن عليه أن يلجأ في الوقت الحاضر إلى الهدوء، وأن يساعد الأسرة ـ بالصبر والروية القصوى ـ على احتمال الازعاجات التي كان مرغماً في حالته الراهنة أن يسببها لهم.

وفي ساعة مبكرة من ساعات الصباح ـ كان الليل لا يزال مخيماً تقريباً ـ سنحت لغريغور فرصة لاختبار قراراته الجديدة. ذلك أن الأخت فتحت الباب، من جانب الرواق، وبرزت وقد ارتدت ثيابها كاملة تقريباً، ونظرت إلى داخل الغرفة بلهفة. ولم تره في الحال، يا إلهي، لا بد أن يكون في مكان ما، وليس في ميسوره أن يطير. ولكن حين لمحته تحت الكنبة، أصابها من الذهول والدهش ما جعلها لا تتمالك نفسها أن تعاود إغلاق الباب من الخارج بعنف. ولكنها سارعت إلى فتح الباب من جديد، وكأنها ندمت على مسلكها ذاك، ودخلت على رؤوس أصابعها وكأنها تزور مريضاً اشتد به المرض، بل وكأنها تزور غريباً.

وكان غريغور قد دفع رأسه إلى أمام حتى حافة الكنبة، وراح يراقبها. هل ستلاحظ أنه كان قد ترك الحليب على حاله، وليس ذلك أبداً لأن الشعور بالجوع كان يعوزه، وهل ستجيئه بضرب آخر من الطعام يكون أقرب إلى ذوقه؟ وإذا لم تفعل ذلك من تلقاء نفسها، فإنه سوف يؤثر الموت جوعاً على أن يلفت نظرها إلى ذلك، على الرغم من أنه استشعر حافزاً قوياً إلى أن ينطلق من تحت الكنبة، ويلقي نفسه على قدمي الأخت، ويتوسل إليها أن تجيئه بشيء طيب يأكله. ولكن الأخت لاحظت لتوّها، في دهش، أن الوعاء كان لا يزال مليئاً، لولا أن قليلاً من الحليب كان قد سُفح من حوله؛ ورفعته في الحال، لا بيديها العاريتين ـ هذا صحيح ـ وإنما بخرقة، وخرجت به. وكان غريغور شديد الفضول لأن يعرف ما الذي سوف تجيء به بدلاً منه، وفكّر شتّى الأفكار. لكن لم يكن من شأنه البتة أن يحزر ما جلبته فعلاً، في طيبة قلبها. فلكي تكتشف أيّ شيء كان يحبّ، جاءته بتشكيلة كاملة من الطعام، منشورة كلها فوق جريدة عتيقة. كانت بينها خُضَرٌ بائتة نصف عفنة، وعظام من عشاء الليلة البارحة مغطاة بمرق أبيض كان قد تجمّد، وبعض الزبيب واللوز، وقطعة من جبن كان غريغور قد أعلن قبل يومين أنها غير صالحة للأكل، وقطعة خبز يابسة، وقطعة خبز مدهونة بالزبدة، وقطعة خبز مدهونة بالزبدة ومملّحة. وبالإضافة إلى هذا كله، وضعت الوعاء المخصص إلى غريغور بشكل نهائي على الأرجح، وكانت قد صبّت فيه بعض الماء. وبدافع من رقة مشاعرها، إذ أدركت أن غريغور لن يأكل أمامها، انسحبت بسرعة، بل إنها أدارت المفتاح كي يلاحظ غريغور أن في استطاعته أن يخلو إلى نفسه، ويرتاح كما يشاء. ورفّت أرجل غريغور باتجاه الطعام. ولا ريب في أن جروحه قد التأمت التئاماً كاملاً، فهو لم يعد يستشعر عائقاً يعيقه. وقد دهش لذلك، وتذكر كيف أنه قبل أكثر من شهر جرح أحد أصابعه، بمدية، جرحاً طفيفاً، وكيف ظل هذا الجرح يؤلمه كثيراً حتى أمس الأول. وفكر: «هل من الممكن أنني أصبحت الآن أملك قدراً أقل من رهافة الحس؟» وفي شره راح يلعق قطعة الجبن، التي اجتذبته في الحال، وبقوة، قبل كل الأطعمة الأخرى. وبسرعة خاطفة التهم الجبن، والخضر، والمرق، بعضها في إثر بعض، ودموع

الارتياح في عينيه. أما الأطعمة الطازجة فلم تلذّ له، بل إنه لم يستطع أن يتحمل رائحتها. حتى إنه أزاح الأشياء التي أراد أن يأكلها إلى مسافة قصيرة. وكان قد أتمّ تناول طعامه، منذ فترة، واستلقى في البقعة نفسها، بكسل، عندما أدارت الأخت المفتاح ببطء، كإشارة بأن عليه أن ينسحب. وأيقظه ذلك في الحال، على الرغم من أنه كان نائماً تقريباً، وسارع إلى الاستخفاء تحت الكنبة مرةً أخرى. ولكن البقاء تحت الكنبة اقتضاه ضبطاً بالغاً للنفس، حتى خلال المدة القصيرة التي قضتها الأخت في الغرفة، ذلك أن جسده كان قد تكوّر بعض الشيء نتيجة الطعام الوافر، وكان قد حشر نفسه إلى درجة جعلته لا يتنفس إلّا في عسر. وتحت نوبات اختناق طفيفة راح يراقب بعينين جاحظتين بعض الشيء الأخت المطمئنة وهي تجمع بالمكنسة لا بقايا ما قد أكل وحسب، بل حتى الأطعمة التي لم يمسّها غريغور، وكأن هذه أيضاً أمست غير قابلة للتناول من قبل أحد، وتُسارع إلى إلقائها كلها في دلوٍ، ما لبثت أن غطته بغطاء خشبي وانطلقت به. ولم تكد تدير ظهرها، حتى خرج غريغور من تحت الكنبة وتمدّد وانتفخ.

بهذه الطريقة أمسى غريغور يحصل يومياً على طعامه، مرةً في الصباح الباكر فيما يكون الوالدان والخادمة لا يزالون نائمين، وأخرى بعد أن يكون الجميع قد تناولوا طعام الغداء، إذ كان الوالدان يستسلمان آنذاك لقيلولة قصيرة، وكانت الخادمة تُبعَد عن المنزل في مهمة ما من قبل الأخت. ولا ريب أنهم لم يكونوا هم أيضاً راغبين في تجويع غريغور، بل ربما كانوا غير قادرين على أن يُطيقوا من العلم بتغذيته أكثر مما يستطيعون الاطلاع عليه بالسماع. ولعل الأخت أرادت أن توفر عليهم أيضاً حزناً لم يكن ربما سوى حزن طفيف، إذ كانوا، في الحق، يعانون بما فيه الكفاية.

ولم يستطع غريغور أن يكتشف بأية ذريعة أخرجوا الطبيب وصانع الأقفال من البيت في ذلك الصباح الأول، ذلك بأنه إذ لم يُفهم، لم يخطر لأحد، ولا للأخت أيضاً، أنه يستطيع أن يفهم الآخرين، وهكذا فقد تعيّن عليه، عندما

تكون الأخت في غرفته، أن يكتفي بسماع زفراتها وابتهالاتها إلى القديسين بين الفينة والفينة ليس غير. وفي ما بعد، حين أَلِفَت الوضعَ بعض الشيء ـ ولم يكن بإمكانها قط أن تألفه إلفاً كاملاً، طبعاً ـ أخذ غريغور يلتقط أحياناً ملاحظة منها تنمّ عن ودّ، أو هكذا كان في الإمكان تفسيرها. «أما اليوم فقد طاب له الطعام»، كانت تقول حين لا يبقي غريغور شيئاً من طعامه. وفي الحالة المعاكسة، وهو ما تواتر حدوثه تدريجياً أكثر فأكثر، فكانت تقول وهي محزونة أو تكاد: «لقد تُرك كل شيء على حاله مرة أخرى».

ولكن على الرغم من أن غريغور لم يستطع أن يفوز بأيما نبأ من طريق مباشر، فقد انتهى إلى سمعه بعض الأشياء من الغرف المجاورة، إذ كان يسترق السمع. فما أن يبلغه صوت ما حتى يهرع إلى الباب المعنيّ ويضغط جسده كله عليه. وفي الأيام الأولى بخاصة لم يكن ثمة أيما حديث لا يدور حوله على نحو أو آخر، ولو ضمنياً وحسب. وطوال يومين كانت ثمة مشاورات عائلية عند كل وجبة من وجبات الطعاَم تدور حول موضوع كيف ينبغي عليهم أن يتصرفوا الآن. ولكن بين الوجبات أيضاً كانوا يتحدثون عن الموضوع نفسه، ذلك أنه كان يوجد في المنزل، دائماً، اثنان على الأقل من أفراد الأسرة، لأن أحداً لم يكن ليرغب في البقاء وحده في الشقة، ولم يكن بالإمكان، في حال من الأحوال، تركها فارغة كلياً. وكانت الخادمة أيضاً، في اليوم الأول مباشرة ـ ولم يكن واضحاً تماماً ما الذي عرفته من الحالة وما مقدار ما عرفته ـ قد تضرّعت إلى الأم أن تسرّحها على الفور؛ وحين ودّعت، بعد ربع ساعة، قدمت شكرها لتسريحها، والدموع في عينيها، وكأنها تعبّر بذلك عن فرحها بالنعمة التي أسبغت عليها، وأقسمت من غير أن يطلب منها أحد يميناً مغلّظة بأنها لن تبوح لأحد بشيء على الإطلاق.

وكان على الأخت، الآن، أن تطبخ أيضاً، بالاشتراك مع الأم. غير أن الطبخ لم يسبب جهداً كبيراً، إذ لم يكونوا يأكلون شيئاً تقريباً. وكان غريغور يسمع دائماً أحدهم يحث آخر على الأكل، ولكن من غير طائل ومن غير أن يفوز إلا

بهذا الجواب: «شكراً، لقد شبعت» أو شيء مثل ذلك. ولعلهم لم يشربوا شيئاً أيضاً. وغالباً ما كانت الأخت تسأل الوالد ما إذا كان يرغب في شيء من الجعة، وتبدي استعدادها، في تلطّف، للاتيان بها بنفسها، وحين يلوذ الوالد بالصمت كانت تقول، كي تزيل أي تردد لديه، إنه في مقدورها أيضاً أن تبعث بوّابة البناية لإحضارها، لكن الوالد كان يقول في النهاية «لا» كبيرة، فينقطع الحديث عن ذلك.

وفي أثناء ذلك اليوم الأول نفسه عرض الوالد أمام الوالدة كما عرض أمام الأخت أيضاً الأوضاعَ المالية بكاملها والفرص الممكنة. وبين حين وآخر كان يغادر الطاولة ليجيء بسندٍ أو سجل ما من خزانته الحديدية الصغيرة التي كان قد أنقذها من متجره الذي كان قد انهار قبل خمس سنوات. وكان في ميسور المرء أن يسمعه يفتح القفل المعقّد، ويقفله بعد إخراج ما يبحث عنه. وكانت بعض إيضاحات الوالد هذه أول نبأ سعيد انتهى إلى مسمع غريغور منذ انحباسه. كان يحسب من قبل أنه لم يبق للوالد أقل شيء من ذلك المتجر؛ على الأقل لم يقل له الوالد أيما شيء يناقض ذلك، لكن غريغور لم يكن من ناحيته قد سأله عن هذا. ولم يكن لدى غريغور، آنذاك، همّ آخر سوى أن يبذل كل ما في وسعه ليساعد الأسرة على أن تنسى، أسرع ما يكون النسيان، تلك المصيبةَ التي أصابتها في المتجر، ودفعت أفرادها جميعاً إلى حال من اليأس الكامل. وهكذا انصرف، آنذاك، إلى العمل في همة استثنائية، ومن مستخدم صغير أمسى، بين عشية وضحاها تقريباً، مندوباً تجارياً متجولاً يملك طبعاً إمكانيات لاكتساب المال مغايرة كلياً، وتحولت نجاحاته في العمل، على الفور، في شكل عمولة، إلى نقد عينيّ يمكن وضعه على الطاولة في البيت أمام أعين الأسرة المشدوهة والسعيدة. وكانت تلك الأيام أياماً زاهرة، ولم تتكرر قط في ما بعد، على الأقل في هذا العزّ، برغم أن غريغور أصبح في ما بعد يكسب من المال ما جعله قادراً على تحمّل نفقات الأسرة بكاملها، وتحمّلها أيضاً. وقد اعتادوا ذلك، غريغور والأسرة، كان هو يعطي المال بسرور، وهم يقبلونه بعرفان، لكن شعوراً خاصاً بالحنان والدفء لم يشأ أن ينشأ بعد الآن. ولم يظل أحد قريباً من غريغور سوى

الأخت، وكان لديه خطة سرية تقضي بأن يرسل الأخت - كانت، على نقيض غريغور، تحب الموسيقا حباً جماً، وتجيد العزف على الكمان بطريقة مؤثرة - إلى المعهد العالي للموسيقى، في العام التالي، وذلك بصرف النظر عن النفقات الضخمة التي لا بد أن تنشأ عن هذا والتي من شأنه تعويضها بطريقة أخرى. وأثناء فترات إقامة غريغور القصيرة في المدينة كان كثيراً ما يجري ذكر المعهد العالي للموسيقى في أحاديثه مع الأخت، ولكن دائماً فقط كحلم جميل لا سبيل إلى تحقيقه البتة، ولم يكن الوالدان يحبّان سماع حتى هذا الذِكر البريء؛ لكن غريغور كان يفكر في خطته بتصميم، وقد عقد العزم على إعلانها، بشكل مهيب، في سهرة عيد الميلاد.

مثل هذه الأفكار غير المجدية أبداً في حالته الحاضرة جالت في رأسه فيما كان يقف ملتصقاً بالباب، يسترق السمع. وفي بعض الأحيان لم يعد يستطيع، بسبب من الإعياء العام، أن يستمع البتة، فيترك رأسه في إهمال يصطدم بالباب، لكن سرعان ما يعيده، إذ إنه حتى الصوت الطفيف الذي كان يسببّه كان يُسمع في الغرفة المجاورة ويترك الجميع يلوذون بالصمت. «ترى ماذا يفعل مرة أخرى»، كان الوالد يقول بعد برهة، مستديراً نحو الباب من غير شك، وعندئذ فقط تُستأنف، تدريجياً، المحادثة المنقطعة.

لقد علم غريغور الآن بما فيه الكفاية - إذ إن الوالد اعتاد أن يكرر نفسه مراراً في شروحاته، سواء لأنه نفسه لم ينظر في هذه الأمور منذ مدة طويلة، أو لأن الوالدة أيضاً لم تفهم كل شيء في الحال لدى المرة الأولى -، بأن مقداراً معيّناً من المال المثمَّر، مقداراً صغيراً طبعاً، ما زال موجوداً من الأيام الماضية على الرغم من كل المصائب؛ والفوائد التي لم تمسّ في هذه المدة دعته يزداد بعض الشيء. ولكن بالإضافة إلى ذلك، فإن المال الذي كان غريغور يحمله إلى البيت كل شهر - هو نفسه كان لا يُبقي لنفسه غير بضع غولدنات - لم يكن يُنفق كله، وتجمّع ليغدو رأسمال صغيراً. وهزّ غريغور رأسه، وهو خلف بابه، في حماسة، مبتهجاً بهذا الشاهد على الاقتصاد والتبصّر غير المتوقعين. في الواقع كان من

شأنه، بهذا المال الفائض، أن يستمر في إيفاء ديون الوالد للرئيس. وكان من شأن ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن يتخلص من هذه الوظيفة أن يكون أقرب بكثير. ولكن ليس من ريب أن الأمور الآن أفضل، وذلك كما كان الوالد قد رتّبها.

لكن هذا المال لم يكن كافياً، بحال من الأحوال، لتمكين الأسرة من العيش من فوائده. ربما كان يكفي لإعالة الأسرة سنة واحدة أو سنتين على الأكثر. ذلك كان كل شيء. كان هذا المال، إذاً، مبلغاً لا يجوز أن يُمسّ، بل ينبغي ادخّاره لحالة من حالات الضرورة؛ أما المال الضروري لسد نفقات العيش فينبغي أن يُكسَب. صحيح أن الوالد موفور الصحة، لكنه رجل عجوز، ولم يقم بأي عمل منذ خمس سنوات، ولا يجوز على أي حال أن يأخذ الكثير على عاتقه. وفي أثناء هذه السنوات الخمس، وهي أول سنوات الراحة في حياته المضنية وغير الموفقة مع ذلك، كان قد أمسى بديناً، الأمر الذي أدّى به إلى أن يصبح خاملاً. والوالدة العجوز، هل ينبغي عليها الآن ربما أن تكسب المال، وهي التي تعاني من الربو، والتي كانت أية جولة داخل الشقة تسبب لها تعباً، وتمضي كل ثاني يوم على الكنبة عند النافذة المفتوحة وهي تشعر بضيق التنفس؟ وهل كان ينبغي على الأخت أن تكسب مالاً، وهي ما زالت طفلة بأعوامها السبعة عشرة، وهي التي ينبغي أن يُقرَّ لها كل الإقرار بنظام حياتها الذي سارت عليه حتى اليوم والذي كان قوامه ارتداء الملابس الأنيقة، والنوم طويلاً، والمساعدة في أعمال المنزل، والمشاركة في بعض التسليات المتواضعة، والعزف على الكمان قبل كل شيء؟ وفي بادئ الأمر، عندما كان الحديث يتطرق إلى هذه الضرورة لكسب المال، كان غريغور، دائماً، يفلت البابَ ويطرح نفسه على الكنبة الجلدية الباردة التي إلى جانبه، لأنه كان يستشعر حرارة الخجل والأسى إلى حد بعيد.

وكثيراً ما كان ينطرح هناك طوال ليالٍ بكاملها من غير أن ينام البتة، خادشاً الجلد ساعاتٍ وساعات. أو يجهد نفسه في دفع كرسي منجّد نحو النافذة، ثم يدبّ مصعّداً إلى قاعدة النافذة، ويتكئ - مشدوداً إلى الكرسي - على زجاج النافذة، متذكّراً من غير ريب حس الحرية الذي كان يستشعره سابقاً عندما كان

ينظر من النافذة. فالحق أنه راح يرى بوضوح أقل، يوماً بعد يوم، الأشياء التي لا تبعد عنه إلا قليلاً؛ والمستشفى المواجه، والذي كان يدأب دائماً أن يلعنه ما أن تقع عيناه عليه، لم يعد يراه أبداً، ولولا أنه كان يعرف تماماً أنه يقطن في شارع شارلوتن، وهو شارع هادئ ولكنه شارع من شوارع المدن على أية حال، لخيّل إليه أن نافذته تطل على أرض مقفرة اتحدت فيها السماء الرمادية والأرض الرمادية على نحو يمتنع معه تمييز إحداهما من الأخرى. ولم تر الأخت المتيقظة سوى مرتين فقط أن الكرسي المنجّد قائم إلى جانب النافذة حتى أخذت تدفعه، كلما رتبت الغرفة، إلى الموضع نفسه قرب النافذة، بل راحت تترك منذ الآن الشباك الداخلي مفتوحاً.

ولو كان في ميسور غريغور أن يتحدث مع الأخت دون غيرها ويقدم لها شكره على كل ما قامت به نحوه، لكان أقدر على احتمال خدماتها. أما في حاله تلك فإنه كان يتألم. وكانت الأخت تحاول، من غير شك، أن تطمس احراجات الأمر كله، ما أمكن. وكلما طال الزمن، وفّقت إلى ذلك بشكل أفضل طبعاً. لكن غريغور أيضاً كشف مع الزمن عن كل شيء بدقة أكثر بكثير. إن دخولها إليه كان أمراً مرعباً بالنسبة له. فما أن تدخل الغرفة حتى تندفع إلى النافذة من غير أن تأخذ وقتاً لإغلاق الباب، على الرغم من حرصها على أن تريح الآخرين من مشاهدة غرفة غريغور، وتفتح النافذة بعنف وبأيد متعجلة، وكأنها توشك على الاختناق، وتمكث برهة لدى النافذة، وإن كان الجو بارداً، وتأخذ أنفاساً عميقة. وبهذا الاندفاع والصخب كانت توقع الخوف في نفس غريغور مرتين في اليوم؛ فكان يرتجف تحت الكنبة، طوال مكوثها في الغرفة، عالماً أحسن العلم أنها كانت خليقة بأن توفر عليه مثل هذا الازعاج لو كان في ميسورها البقاء في غرفة يوجد فيها غريغور من غير أن تفتح النافذة.

وذات يوم، ربما بعد شهر على انمساخ غريغور، وبعد أن لم يبق سبب خاص كي تدهش الأخت لمنظره، وفدت قبل ميعادها المألوف بقليل، ووجدته يحدّق إلى خارج النافذة، جامداً لا يأتي بحركة ما، مستقراً في وضع يجعله مثيراً

للرعب. وما كان غريغور ليفاجأ لو أنها لم تدخل على الاطلاق، إذ إنه بوضعه ذاك كان يعيقها عن أن تفتح النافذة في الحال. ولكنها لم تكتف بعدم الدخول وحسب، بل وثبت مذعورة إلى الوراء، وأغلقت الباب. وكان من شأن أحد الغرباء أن يظن حقاً أن غريغور إنما كان يتربّص لها وفي نيّته أن يعضّها. وقد سارع غريغور، طبعاً، إلى الاختباء تحت الكنبة، ولكن كان عليه أن ينتظر حتى الظهر قبل أن تعود الأخت، ولقد بدت أكثر قلقاً واضطراباً من مألوف عادتها. وهذا ما جعله يدرك إلى أي حدّ لا يزال منظره منظراً لا تطيقه، وأنه من المحتّم أن يظل هكذا، وأنه لا بدّ لها أن تنفق جهداً كبيراً لكي لا تفرّ حتى من رؤية ذلك الجزء الصغير من جسده الناتئ من تحت الكنبة. ولكي يعفيها من هذا المشهد، حمل ذات يوم على ظهره ملاءة السرير، ومضى بها إلى الكنبة ـ لقد كلفه ذلك عملاً استغرق أربع ساعات ـ ووضعها على نحوٍ يخفي جسده إخفاء كلياً، بحيث تعجز الأخت عن رؤيته حتى في حال انحنائها. ولو أنها كانت تعتبر الملاءة غير ضرورية، إذاً لنزعتها عن الكنبة من جديد، فقد كان واضحاً بما فيه الكفاية أنه لا يمكن أن يكون مما يرفّه عن غريغور أن يحبس ويحجب نفسه هكذا. ولكنها تركت الملاءة كما كانت، بل لقد خيّل إلى غريغور أنه لمح نظرة امتنان حين رفع، ذات مرة، طرف الملاءة برأسه، بعض الشيء، في حذر، ليرى موقف الأخت من هذا التدبير الجديد.

في الأسبوعين الأولين لم تواتِ الوالدين الشجاعةُ على الدخول إليه، وكثيراً ما سمعهما يعبّران عن تقديرهما الكامل لعمل الأخت الحالي، في حين كانا من قبل كثيراً ما يغضبان منها، إذ كانت تبدو لهما ابنةً لا غَنَاء فيها إلى حد ما. أما الآن فقد أخذا كلاهما، الوالد والوالدة، يُكثران من الانتظار أمام غرفة غريغور، فيما ترتّبها الأخت، وما أن تخرج، حتى يتعيّن عليها أن تروي بكل دقة، كيف كانت الغرفة تبدو، وما الذي أكله غريغور، وكيف تصرّف هذه المرة، وما إذا كان بالإمكان ملاحظة ربما شيء من التحسّن. وإلى جانب ذلك، فإن الوالدة شرعت، في وقت عاجل نسبياً، ترغب في زيارة غريغور، لكن الوالد والأخت استوقفاها، بادئ الأمر، بأسباب يمليها العقل، أصغى غريغور إليها في انتباه بالغ،

وأقرّها كلها. أما في ما بعد فقد وجب إيقاف الوالدة بالقوة، حتى إذا صرخت: «اتركاني أدخل على غريغور، إنه ولدي البائس! ألا تستطيعان أن تفهما أن عليّ أن أذهب إليه؟» فكر غريغور أنه ربما كان من الخير أن تدخل الأم عليه، ليس كل يوم طبعاً، ولكن ربما مرةً كل أسبوع. لقد كانت تفهم كل شيء، على أية حال، أحسن بكثير من الأخت التي لم تكن، برغم كل شجاعتها، غير طفلة، والتي قد لا تكون، في واقع الأمر، قد أخذت على عاتقها مثل هذه المهمة العسيرة إلا بدافعٍ من طيشها الطفلي ليس غير.

وما لبثت رغبة غريغور في رؤية الأم أن تحققت. كان خلال النهار لا يرغب، مراعاة منه للوالدين، في إظهار نفسه عند النافذة؛ ولكنه لم يكن أيضاً قادراً على الزحف كثيراً على الأمتار المربعة القليلة التي تتألف منها أرضُ الغرفة؛ والاستلقاء الهادئ كان يتحمله أثناء الليل بصعوبة، والطعام ما عاد يستطيبه في كثير أو قليل. وهكذا اتخذ، على سبيل التسرية عن النفس وتزجية الوقت، عادةَ الزحف، بصورة متصالبة، على الجدران والسقف؛ وقد أحب، بخاصة، التدلي من السقف؛ فقد كان ذلك شيئاً مغايراً كلية للاستلقاء على الأرض. إنه يمكّن المرء أن يتنفس بحرية أكثر، ويتيح للجسم أن يهتزّ بخفة. وفي غمرة الشرود السعيد تقريباً، الذي كان غريغور يوجد فيه وهو في الأعلى، كان يمكن أن يحدث ـ الأمر الذي كان يفاجئه ـ أن يُفلت نفسه ويسقط على الأرض محدثاً صوتاً. بيد أن سيطرته على جسده كانت الآن طبعاً أحسن منها في ما مضى، ولم يكن ليؤذي نفسه حتى في هذه السقطة الكبيرة. ولاحظت الأخت، في الحال، التسلية الجديدة التي أوجدها غريغور لنفسه ـ لقد ترك أيضاً لدى زحفه هنا وهناك آثاراً من مادة دبقة ـ وعقدت العزم على أن تفسح له أوسع ميدان للزحف، وأن تُقصي قطع الأثاث التي تعوقه، وبخاصة الخزانة ذات الأدراج ومنضدة الكتابة. لكنها لم تكن قادرة على أن تقوم بهذا منفردة. ولم تجرؤ على التماس المساعدة من الوالد. ومن المؤكد كلية أنه لم يكن من شأن الخادمة أن تساعدها، فهذه الفتاة التي بلغت السادسة عشرة من عمرها صمدت ـ حقاً ـ بشجاعة بعد تسريح الطاهية السابقة، لكنها كانت قد التمست امتيازاً هو أن

يُسمح لها إبقاء باب المطبخ موصداً بشكل مستمر، وأن لا تضطر إلى فتحه إلا بناء على نداء خاص؛ وهكذا لم يبق إذاً أمام الأخت سوى أن تجلب الأم في ساعةٍ يكون الوالد غائباً خلالها عن البيت. وأقبلت الأم وهي تطلق أصوات ابتهاج منفعلة، لكنها تلاشت عند الباب أمام غرفة غريغور. وطبعاً تحققت الأخت أولاً في ما إذا كان كل شيء في الغرفة على ما يرام؛ وبعد ذلك فقط تركت الأم تدخل. وكان غريغور قد جذب، في عجلة بالغة، الملاءة إلى الأسفل أكثر، وغضّنها إلى ثنيّات أكثر، وبدا الأمر كله حقاً ملاءة ألقيت بمحض المصادفة فوق الكنبة. وأحجم غريغور هذه المرة أيضاً عن التجسس من تحت الملاءة. لقد امتنع عن رؤية الأم منذ هذه المرة، وكان فرحاً فقط أنها جاءت. «هيّا ادخلي، إنه بعيد عن البصر»، قالت الأخت وهي تقود الأم من يدها على ما يبدو. وسمع غريغور الآن كيف قامت المرأتان الضعيفتان بزحزحة الخزانة العتيقة الثقيلة، على كل حال، من موضعها، وكيف كانت الأخت تطالب نفسها على الدوام بالجزء الأعظم من العمل، غير مصغية إلى تحذيرات الأم التي خشيت أن تُرهق الفتاة نفسها. واستغرق ذلك وقتاً طويلاً. وبعد عمل دام ربع ساعة على الأقل، قالت الأم إن من الأفضل أن تبقى الخزانة حيث هي، إذ إنها ـ أولاً ـ ثقيلة جداً، ولن تفرغا من العمل قبل وصول الوالد، وبوجود الخزانة في وسط الغرفة سوف تسدّان كل طريق لغريغور، أما ثانياً فإنه ليس من المؤكد أبداً أنه يُسدى معروفاً لغريغور بإبعاد الأثاث. ويبدو لها أن الأمر عكس ذلك؛ وأن منظر الجدار العاري إنما يثير الانقباض في صدرها حقاً؛ ولماذا ليس من شأن غريغور أيضاً أن يملك هذا الإحساس، فهو من غير ريب قد اعتاد على أثاث الغرفة منذ مدة طويلة، وسوف يشعر، لهذا السبب، بالوحشة في الغرفة الفارغة. «أوَليس الأمر هكذا»، اختتمت الأم كلامها قائلة في صوت خفيض، بما يشبه الهمس تقريباً، وكأنها تريد أن تتجنب أن يسمع غريغور، الذي لم تكن تعرف مستقرّه تماماً، مجرد نبرة الصوت، أما الكلمات فإن الأم كانت مقتنعة أنه لا يفهمها، «أوَليس الأمر هكذا وكأننا بإبعاد قطع الأثاث نبيّـن أننا نقطع كل أمل بالشفاء ونتركه وشأنه في غير اكتراث؟ أنا أعتقد أن من الأفضل أن نحاول الحفاظ على الغرفة

تماماً في الحالة التي كانت عليها في الماضي، حتى يجد غريغور، عندما يعود إلينا، كل شيء على حاله، ويكون من الأيسر عليه أن ينسى الفترة الفاصلة».

وعند سماع كلمات الأم هذه أدركِ غريغور أن انعدام الحديث البشري المباشر انعداماً كاملاً، مقروناً بالحياة الرتيبة في وسط العائلة، قد أوقع الاضطراب في عقله من غير شك إبّان هذين الشهرين، إذ إنه لم يستطع أن يفهم بشكل آخر لماذا تصبو نفسه جدّياً إلى أن يجري إفراغ غرفته. أكان يرغب فعلاً في أن يدع الغرفة الدافئة المفروشة على نحو مريح بأثاث موروث تُحوَّل إلى كهف، يكون من شأنه هو أن يزحف فيه بلا إزعاج نحو كل الاتجاهات طبعاً، ولكن مع نسيانه، في آن، ماضيه الإنساني نسياناً كلياً سريعاً؟ لقد كاد في الواقع أن ينسى، وصوت الأم وحده، هذا الصوت الذي لم يسمعه منذ مدة طويلة، أيقظه من نسيانه. يجب أن لا يُخرَج أيما شيء، يجب أن يبقى كل شيء. إنه لم يكن قادراً عن الاستغناء عن التأثير الطيب الذي يتركه الأثاث على حالته؛ وإذا ما أعاقته قطع الأثاث عن ممارسة الزحف العقيم هنا وهناك، فإن ذلك لم يكن ضرراً، وإنما ميزة كبرى.

ولكن الأخت كانت، للأسف، ترى رأياً آخر؛ كانت قد اعتادت وليس ذلك لغير ما حقّ، أن تقوم لدى مناقشة شؤون غريغور بدور الخبيرة إزاء الوالدين، وهكذا كانت الآن أيضاً نصيحة الأم سبباً كافياً بالنسبة للأخت كي تصرّ لا على إخراج الخزانة ومنضدة الكتابة وحسب، التي كانت قد فكرت بهما في بادئ الأمر، ولكن على إخراج الأثاث كله ما خلا الكنبة التي لا يُستغنى عنها. ولم يكن، طبعاً، مجرد عناد طفليّ وثقة بالنفس اكتسبتها في المدة الأخيرة بصعوبة وعلى نحوٍ غير متوقع هو ما دفعها إلى هذا المطلب؛ كانت أيضاً قد لاحظت فعلاً أن غريغور في حاجة إلى فسحة واسعة يزحف خلالها، على حين أنه لم يكن، من ناحية ثانية، يستعمل الأثاث على الإطلاق، بقدر ما يمكن للمرء أن يرى. وقد يكون من بين العوامل التي دفعتها إلى اتخاذ هذا الموقف هو روح الحماسة التي تتصف بها الفتيات في مثل سنّها والتي تبحث عند كل مناسبة عن

إشباع نفسها، هذه الروح التي تركتها غرتِه تغريها الآن بأن تجعل وضع غريغور مروّعاً أكثر، لكي يكون في ميسورها أن تعمل من أجله أكثر بكثير مما عملت حتى الآن. إذ لن يجرؤ إنسان آخر غير غرتِه على الدخول أبداً إلى غرفة يسيطر غريغور وحده على جدرانها العارية.

وهكذا لم تدع نفسها تثنى عن عزمها من قبل الأم، التي بدت في هذه الغرفة أيضاً مضطربة من شدة الخوف، والتي سرعان ما لزمت الصمت وراحت تساعد الأخت، ما استطاعت، على دفع الخزانة إلى الخارج. وعلى أية حال، فقد كان في ميسور غريغور، عند الاقتضاء، أن يستغني عن الخزانة، لكن منضدة الكتابة يجب أن تبقى. فما أن خرجت الامرأتان بالخزانة، وهما تئنّان فيما كانتا تدفعانها، حتى أطلع غريغور رأسه من تحت الكنبة ليرى كيف يستطيع أن يتدخل بحذر وبأكبر قدر من المراعاة. ولكن من سوء الحظ أن الأم بالذات هي التي عادت أولاً، بينما كانت غرتِه، في الغرفة المجاورة، تضمّ الخزانة بذراعيها وتهزّها بمفردها، من غير أن تحركها من موضعها طبعاً. بيد أن الأم لم تكن قد اعتادت منظر غريغور، وكان خليقاً به أن يسقمها، وهكذا سارع غريغور للانكفاء، في ذعر، إلى الطرف الآخر من الكنبة، لكنه لم يعد يستطيع أن يمنع الملاءة من أن تتحرك قليلاً في المقدمة. وكان ذلك كافياً لكي يلفت نظر الأم. فتمهّلت، ولبثت ساكنةً لحظةً، ثم ارتدت عائدة إلى غرته.

وعلى الرغم من أن غريغور ظل يقول لنفسه لا شيء غير مألوف يحدث، وإن قِطَعاً قليلة من الأثاث ليس غير كانت تُنقل من مكان إلى مكان، فسرعان ما تعيّن عليه أن يسلّم بأن رواح الامرأتين وغدواتهما ونداءاتهما القصيرة، وسحب الأثاث على الأرض سحباً كان يقع في نفسه وكأنه ضجة هائلة تنبعث نحوه من جميع الجهات في آنٍ، ومهما طوى رأسه وأرجله، وضغط جسمه حتى وصل إلى أرض الغرفة، فقد تعيّن عليه أن يقول لنفسه لا محالة أنه لن يكون في ميسوره احتمال ذلك مدة طويلة. كانتا تخليان غرفته اخلاءً وتنتزعان منه كل ما كان أثيراً على قلبه؛ كانتا قد أخرجتا الخزانة التي يضع فيها منشار الخشب الرفيع

وغيره من الأدوات، وكانتا تعملان الآن على فك منضدة الكتابة، التي كادت تغوص في أرض الغرفة، منضدةِ الكتابة التي أعدّ عليها وظائفه يوم كان طالباً في الأكاديمية التجارية، ويوم كان تلميذاً في المدرسة الثانوية قبل ذلك، بل يوم كان تلميذاً في المدرسة الابتدائية أيضاً. ولم يكن لديه متسع إضافي من الوقت يختبر فيه النيات الطيبة التي كانت تحدو الامرأتين، اللتين نسي في تلك اللحظة وجودهما أو كاد، إذ كانتا منهكتين إلى درجة جعلتهما تشتغلان في صمت، فلم يكن ثمة ما يُسمَع غير جرّ أقدامهما المتثاقل على الأرض.

وهكذا اندفع منطلقاً من مكانه ـ كانت الامرأتان تستندان على منضدة الكتابة، في الغرفة المجاورة، لكي تستردّا أنفاسهما بعض الشيء ـ وغيّر اتجاهه أربع مرات، إذ لم يكن يدري، في الواقع، أي شيء يتعيّـن عليه أن ينقذه أولاً. وفجأة لفتـت انتباهَه على الجدار المقابل الذي كان قد جُرِّد من كل شيء آخر، صورةُ السيدة المتدثرة بذلك المقدار كله من الفراء، وسارع إلى الزحف مصعّداً نحوها، وضغط نفسه على الزجاج، الذي أمسك بغريغور وأراح جوفَهُ الحارّ. هذه الصورة على الأقل، التي يغطيها غريغور كلية، لن ينتزعها أحد بالتأكيد. وأدار رأسه نحو باب غرفة الجلوس لكي يراقب الامرأتين وهما تعودان. وسرعان ما عادتا، دون أن تمنحا نفسيهما قدراً كبيراً من الراحة؛ كانت غرته تطوّق الأم بذراعيها وهي تكاد تحملها. «ما الذي سوف نأخذه الآن إذاً؟» قالت غرته وهي تنظر حولها. والتقت عيناها بعيني غريغور على الجدار. ولم تحتفظ برباطة جأشها إلا بسبب وجود الأم، وحنت رأسها نحو الأم، لكي تحول بينها وبين النظر حولها، وقالت، ولكن في صوت مرتعش وبغير تفكير أو تروٍ: «هيا، أليس من الأفضل أن نرجع إلى غرفة الجلوس لحظة من الزمان؟» وكان مقصد غرته واضحاً لغريغور، كانت تريد أن تُبلغَ الأمَّ مأمناً، ثم تطرده من على الجدار. حسناً، فلتجرّب أن تفعل ذلك! إنه يقبع على الصورة، ولن يتخلى عنها. وهو يُؤثر أن يهبّ في وجه غرته.

ولكن كلمات غرِتِه كانت، من باب أَولَى، قد أثارت قلق الأم، التي خطت خطوة إلى الجانب، ولمحت الكتلة الضخمة السمراء على ورق الجدار الموشح

بالأزهار؛ وقبل أن تعي أتمّ الوعي أن ما رأته كان غريغور، صاحت في صوت مرتفع أجش: «آه، يا الهي! آه، يا الهي!» وسقطت مبسوطة الذراعين، على الكنبة، وكأنها قد فقدت الرجاء كله، ولم تتحرك. وصاحت الأخت وهي ترفع قبضتها وتحدّق إليه: «غريغور!» كانت هذه أول كلمة توجهها إليه منذ انمساخه. وهرعت إلى الغرفة المحاذية التماساً لبعض العطر تُنعش به الأم من غيبوبتها؛ وأراد غريغور أن يمدّ يد المساعدة أيضاً ـ كان الوقت ما يزال متسعاً لإنقاذ الصورة ـ لكنه كان مُحكَم الالتصاق بالزجاج، وكان عليه أن ينزع نفسه نزعاً؛ ثم إنه ركض في إثر الأخت إلى الغرفة المحاذية، وكأن في استطاعته أن يسدي لها نصيحة ما شأنَهُ في الأيام السالفة؛ بيد أنه تعيّن عليه أن يقف خلفها عاجزاً؛ وانصرفت هي، في غضون ذلك، إلى البحث بين مجموعة من الزجاجات الصغيرة المختلفة، حتى إذا استدارت، أجفلت مذعورةً لرؤيته؛ وسقطت إحدى الزجاجات على الأرض فانكسرت؛ وجرحت شظية زجاج وجه غريغور، وأصابه رشاش من ضرب من الدواء الأكّال؛ ومن غير أن تتمهّل لحظةً إضافية جمعت غرته كل الزجاجات التي استطاعت أن تحملها، وركضت بها نحو الأم، موصدةً الباب بقدمها في قوة. وأمسى غريغور، الآن، معزولاً عن الأم، التي قد تكون بسببه مشرفةً على الموت. ولم يكن يجوز له أن يفتح الباب إذا لم يشأ أن يطرد الأخت، التي كان ينبغي عليها أن تبقى مع الأم؛ ولم يكن ثمة ما يستطيع أن يعمله الآن غير الانتظار. وإذ أقلقه الهمّ وتوبيخ الذات، فقد شرع يزحف جيئة وذهاباً، فوق كل شيء، فوق الجدران، فوق الأثاث، فوق السقف، وأخيراً سقط، في غمرة من يأسه حين بدأت الغرفة كلها تدور من حوله، سقط على منتصف الطاولة الكبيرة.

وانقضت مدة قصيرة، كان غريغور لا يزال منطرحاً هناك في وَهَن، وكان كل شيء حوله ساكناً، ولعل ذلك كان فألاً حسناً. ثم قُرع جرس الباب. كانت الخادمة محبوسة في مطبخها طبعاً، وكان على غرته أن تفتح الباب. كان الوالد قد جاء. وكانت أولى كلماته: «ماذا جرى؟» ولا بد أن مظهر غرته قد أفصح له عن كل شيء. وأجابته غرته في صوت مكتوم، وقد بدا وكأنها تحجب رأسها

على صدره: «لقد أصيبت الأم بإغماء، ولكنها أحسن الآن. لقد انطلق غريغور من عقاله». فقال الوالد: «ذلك ما كنت أتوقعه على وجه الضبط. ذلك ما كنت أقوله لكما على وجه الضبط، غير أنكن، أيتها النسوة، لا تُرِدن الإصغاء». وكان واضحاً لغريغور أن الوالد قد أوّلَ عبارة غرته البالغة الإيجاز تأويلاً سيئاً، وأنه كان يحسب أن غريغور قد اقترف عملاً من أعمال العنف. وإذاً، فيتعيّـن على غريغور الآن أن يحاول تخفيف غضب الوالد، إذ لم يكن لديه لا الوقت الكافي ولا الوسيلة لكي يوضح له ما حدث. وهكذا فرّ إلى باب غرفته وربض ملتصقاً به لكي يمكّن الوالد من أن يرى، لدى دخوله قادماً من الرواق، أن غريغور ينوي أحسن نيّة العودة إلى غرفته في الحال، وأن ليس ثمة حاجة لسَوقه إلى هناك، وإنما لا يحتاج المرء إلا لفتح الباب، حتى يختفي في الحال.

لكن الوالد لم يكن في حال نفسية تمكّنه من ملاحظة مثل دقائق الأمور هذه. فلم يكد يبرز حتى صاح «آه!» في جرس بدا غاضباً ومتهللاً في آن. وردّ غريغور رأسه عن الباب، ورفعه نحو الوالد. حقاً إنه لم يتصور الوالد كما يقف الآن؛ لا ريب أنه كان قد فاته في المدة الأخيرة، بسبب زحفه الجديد في كل مكان، أن يُعنى عنايَتَهُ السابقة بما كان يجري في الأجزاء الأخرى من المنزل، وكان عليه في الواقع أن يكون مستعداً لأن يجد ظروفاً متغيرة. ومع ذلك، ومع ذلك، فهل يمكن أن يكون هذا ما زال هو الوالد؟ الرجل الذي كان يستلقي في فراشه ويغرق فيه متعباً واهناً كلما انطلق غريغور في رحلة من رحلاته التجارية؛ الرجل الذي كان يستقبله في أماسي العودة وهو منطرح على كرسي طويل مرتدياً ثوباً فضفاضاً، دون أن يكون قادراً أن ينهض على قدميه حقاً، وإنما يرفع يديه ليس غير، دلالة السرور؛ والذي كان لدى المشاوير المشتركة النادرة في بضعة أيام آحاد في العام وفي أيام الأعياد الكبرى يمشي بين غريغور والأم، اللذين كانا مشّائين بطيئين على أية حال، في بطء أعظم من بطئهما، متدثراً بمعطفه العتيق، متقدماً في تثاقل وجهد مستعيناً بعصاه ذات القبضة العقفاء، تلك العصا التي كان يمسّ بها الأرض، في أشد الحذر، عند كل خطوة، حتى إذا أراد أن يقول شيئاً، توقف عن السير بالكلية، في أغلب الأحيان، وجمع مرافقيه حوله؟

لكنه الآن كان يقف منتصباً، مرتدياً بذلةً نظامية زرقاء مشدودة ذات أزرار ذهبية كتلك التي يرتديها سعاة المصارف؛ وقد نتأت ذقنه القوية المزدوجة فوق قبّة سترته المرتفعة القاسية؛ وكانت عيناه السوداوان تسددان نظراتٍ قوية ثاقبة من تحت حاجبيه الكثيفين؛ وكان شعره الأشيب، الذي اعتاد أن يكون مشعّثاً، قد سرِّح عند كل من جانبي الفَرق الدقيق اللامع. وقذف بقبعته، الحاملة حروفاً رمزية ذهبية، لعلها شعار مصرف من المصارف، قذف بقبعته تلك إلى الكنبة عبر الغرفة بأكملها. لقد ردّ طرفي سترته إلى الوراء، وأقحم يديه في جيبي سرواله، وتقدّم نحو غريغور مقطباً كالح الوجه. وأغلب الظن أنه هو نفسه ما كان يعلم ما الذي يعتزم أن يفعل. وعلى أية حال، فقد رفع قدميه إلى حدّ غير مألوف، ولقد شُدِه غريغور من ضخامة نعلي حذائه. ولكن غريغور لم يتوقف كثيراً عند هذا، فقد كان يعرف منذ اليوم الأول من أيام حياته الجديدة، أن الوالد كان يرى في القسوة، كل القسوة، على غريغور التصرف الوحيد المناسب في معاملته. وهكذا جرى أمام الوالد، واقفاً كلما وقف، راكضاً من جديد كلما قام الوالد بحركة ما. وعلى هذا النحو طوّفا حول الغرفة مرات عديدة من غير أن يحدث أيما شيء حاسم، لا بل من غير أن يبدو الأمر كله وكأنه مطاردة، وذلك نتيجة بطئه. وهكذا لم يفارق غريغور أرض الحجرة، ذلك بأنه خشي أن يعتبر الوالد أيما فرار من قبله إلى الجدران أو إلى السقف ضرباً من ضروب الخبث الغريب. غير أنه كان على غريغور أن يقول لنفسه إنه لن يحتمل طويلاً حتى هذا الجري، إذ بينما كان الوالد يخطو خطوةً كان يتعيّـن عليه هو أن يقوم بعدد كبير من الحركات. وقد بدأ ضيق التنفس يلاحَظ عليه، تماماً كما كان أيضاً في حياته السابقة لا يملك رئتين جديرتين كثيراً بالثقة. وفيما كان يترنح في سيره، كي يجمع كل قواه للجري، مبقياً عينيه مفتوحتين بشقّ النفس، غير مفكّر وقد تبلّد ذهنه في أيما ضرب من ضروب النجاة غير الجري، بعد أن كاد ينسى أن الجدران كانت مباحة له، لكن تلك الجدران التي كان السبيل إليها مسدوداً هنا بقطع من الأثاث بارعة النقش حافلة بالعُقَد والشقوق ـ فيما كان يفعل ذلك سقط شيء إلى جانبه، كان قد قُذف قذفاً خفيفاً، وتدحرج أمامه. كانت تفاحة. وتبعتها

تفاحة أخرى في الحال. وكفّ غريغور، مذعوراً، عن الجري. لم يكن ثمة جدوى من الركض، فقد كان الوالد مصمماً على قصفه. كان قد ملأ جيوبه بالفاكهة من الطبق الموضوع على نَضَد المائدة، وراح الآن يقذف بالتفاحة إثر التفاحة، من غير أن يُحكم تسديد الضربات مؤقتاً. وتدحرجت التفاحات الصغيرة الحمراء فوق أرض الحجرة وكأنها مكهربة، وتصادم بعضها ببعضها الآخر. ومسّت تفاحةٌ مقذوفة في قليل من العنف ظهرَ غريغور مسّاً رفيقاً، وارتدت منحرفةً عنه من غير أن تصيبه بأذىً ما. ولكن تفاحة أخرى أُلقيت بعدها في الحال انغرست في ظهره حقاً؛ ورغب غريغور في جرّ نفسه إلى أمام، وكأن الألم المفاجئ الذي لا يُصدَّق كان يمكن أن يزول مع تغيير المكان؛ ولكنه استشعر وكأنه مسمّر إلى ذلك الموضع، وسطّح نفسه وقد ارتبكت حواسه كلها ارتباكاً كاملاً. وبآخر نظرة من نظراته رأى باب غرفته يُفتح في عنف، ورأى الأم تندفع، في صدرتها التحتية، أمام الأخت المُعوِلة، ذلك أن الأخت كانت قد حلّت وثاق ملابسها لكي تمكّنها من حرية التنفس في إغماءتها؛ لقد رأى الأم تندفع نحو الأب، تاركة خلفها على الأرض تنورتيها المحلولتين، إحداهما بعد الأخرى، متعثرة فوق هاتين التنورتين متخذةً سبيلها قدُماً إلى الوالد، لتعانقه في اتحاد كامل به ـ ولكن بَصَر غريغور بدأ ههنا يخونه ـ وقد طوّقت عنق الأب بذراعيها متوسلةً إليه أن يُبقي على حياة غريغور.

٣

إن إصابة غريغور الخطيرة، التي عانى منها أكثر من شهر ـ لقد ظلت التفاحة، إذ لم يجرؤ أحد على انتزاعها، قابعة في لحمه كذكرى منظورة ـ بدت وكأنها جعلت الوالد نفسه يتذكر أن غريغور كان على الرغم من شكله الحاليّ البائس الكريه واحداً من أفراد الأسرة لا يجوز أن يُعامل معاملة عدوّ، وأن الواجب العائلي يقضي إزاءه ـ على عكس ذلك ـ كبت الاشمئزاز والتحلّي بالصبر، ولا شيء غير الصبر.

ولو أن غريغور فَقَدَ، وربما إلى الأبد، خفة الحركة بسبب إصابته، وأمسى الآن يحتاج، مثله مثل عجوز مُقعَد إلى دقائق طويلة، طويلة كي يعبر غرفته زحفاً ـ الزحف في الأعالي لم يَعد يخطر في البال ـ فإنه حصل حسب رأيه على تعويض كاف كلية عن هذا التدهور لحالته، وذلك بأن باب غرفة الجلوس، الذي كان من دأبه أن يراقبه قبل اليوم، في اهتمام، مراقبة تستغرق ساعة أو ساعتين، قد أصبح يُترك دائماً عند المساء مفتوحاً، بحيث أمسى في استطاعة غريغور وهو يقبع في غرفته وسط الظلام، غير مرئيّ من غرفة الجلوس، أن يرى جميع أفراد الأسرة جالسين إلىَ الطاولة المضاءة بنور المصباح، ويستمع إلى أحاديثهم، بموافقتهم جميعاً إلى حد ما، على نحو يختلف كل الاختلاف عن الحال في ما مضى.

وطبعاً لم تكن هذه الأحاديث مثل تلك الأحاديث الحيوية التي كانت في سابقات الأيام، والتي كان غريغور يفكر بها دائماً في شيء من الشوق، وهو في حجرات الفنادق الصغيرة، حين كان عليه أن يُلقي بنفسه، متعباً مكدوداً، على

فراش رطب. كانوا الآن يعتصمون بالصمت المطبق في الأعم الأغلب. وبعد العشاء مباشرة كان الوالد يستسلم للرقاد في كرسيه الوثير؛ وكانت الأم والأخت تحثّ إحداهما الأخرى على الصمت؛ وكانت الوالدة تحيك، منحنية فوق المصباح، ملابس داخلية ناعمة لمحل أزياء؛ وأما الأخت، التي كانت قد أصبحت بائعة في أحد المتاجر، فكانت في الأمسيات تدرس الاختزال واللغة الفرنسية، لكي تحصل يوماً ما ربما على عمل أفضل. وكان الوالد يفيق أحياناً، ويقول للوالدة وكأنه غير واعٍ البتة أنه كان نائماً: «ما أكثر ما تقومين به اليوم من خياطة!» ويعود إلى النوم فوراً، بينما تتبادل الامرأتان ابتسامة مرهَقَة.

وفي ضرب من العناد كان الوالد يرفض أن يخلع بزّة الفرّاش الرسمية حتى وهو في البيت؛ وفي حين كان ثوبه المنزلي الفضفاض يتدلى من المشجب في غير جدوى، كان هو يغفو في بزّته الكاملة وهو قاعد، فكأنه كان يريد أن يكون دائماً مستعداً للخدمة، وأنه ينتظر هنا أيضاً صوت رئيسه. وهكذا فقدت بزّته الرسمية، التي لم تكن منذ البداية جديدة، نظافتها رغم كل عناية الأم والأخت بها؛ وكثيراً ما أمضى غريغور أمسيات بطولها ينظر إلى هذا اللباس المتألق بأزرار ذهبية مصقولة دائماً، والذي نام فيه الرجل العجوز بانزعاج بالغ، ولكن في أمن وهدوء.

وما كانت الساعة تعلن العاشرة، حتى تحاول الأم أن توقظ الأب بكلمات رقيقة وتقنعه بعد ذلك بالإيواء إلى سريره لأن هذا النوم هنا ليس نوماً صحيحاً، والنوم الصحيح هو ما يحتاج إليه أكثر من أي شيء آخر، إذ كان عليه أن يمضي إلى عمله في الساعة السادسة صباحاً. ولكنه بذلك العناد الذي استبدّ به منذ أمسى فرّاشاً كان يصرّ دائماً على البقاء طويلاً جالساً إلى المائدة على الرغم من أنه كان يعاود الاستسلام أبداً للنوم، ومن ثم لم يكن، فوق ذلك، ليُحمَل إلا بأعظم جهد إلى مبادلة الفراش بالكرسي. ومهما كانت الأم والأخت تلحّان عليه بنصائح لطيفة، فقد كان يأخذ في هزّ رأسه، هزّاً بطيئاً، طوال ربع ساعة، مبقياً عينيه مغمضتين، دون أن ينهض. كانت الأم تشدّه من رُدنه، هامسةً في

أذنه كلمات التحبب، وكانت الأُخت تترك دروسها لكي تهرع لمساعدة الأم، ولكنّ كل هذا لم يكن ليحدث الأثر المطلوب لدى الوالد، الذي لا يزداد إلا غوصاً في كرسيه. حتى إذا لجأت الامرأتان آخر الأمر إلى رفعه من إبطيه فتح عينيه، ونظر إليهما، واحدة إثر أخرى، قائلاً في العادة: «هذه حياة! هذا هو الأمن والهدوء الذي ينبغي أن أتمتع بهما في شيخوختي!» ويستند إلى الامرأتين معاً، ويرفع نفسه، في عُسر، وكأنه كان ثقلاً ثقيلاً على نفسه، ويتركهما تقودانه حتى الباب، ثم يومئ لهما بيديه ويمضي وحده، فيما كانت الأم تلقي أشغال إبرتها، والأخت تلقي قلمها بأسرع ما يمكن لكي تركضا خلفه وتسديا إليه عوناً إضافياً.

من ذا الذي كان يستطيع أن يجد متسعاً من الوقت، في هذه الأُسرة المرهَقة المجهَدة، للاهتمام بغريغور اهتماماً يزيد ذرة واحدة على المقدار الضروري؟ وجرى التقليل من طعام الأسرة أكثر فأكثر، وصُرفت الخادمة أخيراً؛ وأخذت خادمة، تعمل بالساعات، ضخمة بارزة العظام ذات شعر أبيض يتطاير حول رأسها تجيء صباحاً ومساءً لتقوم بالأعمال الأكثر مشقة؛ أما ما عدا ذلك من الأعمال فكانت الأم تنهض بها كلها، إلى جانب أكوام كبيرة من أشغال الخياطة. بل حدث أن قطعاً مختلفة من حُلَى الأسرة، التي كانت الأم والأخت تلبسانها سابقاً، وهما في غاية السعادة، في الليالي الساهرة والاحتفالات، قد بيعت، كما علم غريغور ذات مساء من النقاش العام حول الأسعار التي حققتها. لكن أكبر شكوى كانت دائماً هي أنهم لا يستطيعون أن يتركوا هذه الشقة، التي كانت كبيرة جداً بالنسبة إلى الظروف الحالية، لأنه لا يمكن تصور كيف يمكن نقل غريغور منها. لكن غريغور رأى في وضوح أن ما حال دون الانتقال لم يكن مراعاة وضعه وحسب، إذ كان بالإمكان نقله، في يُسر، داخل صندوق مناسب يحوي بضعة ثقوب للتهوية؛ إن ما منعهم، بصورة رئيسية، من تغيير المسكن كان بالأحرى يأسهم الكامل وتفكيرهم بأن مصيبة قد حلّت بهم كما لم تحلّ قط بأي من أقاربهم أو معارفهم. وقد أدّوا، غاية الأداء، ما يتطلبه العالم من الناس الفقراء، فقد كان الوالد يحمل طعام الصباح إلى موظفي المصرف

الصغار، وكانت الوالدة تضحّي بنفسها في سبيل الملابس الداخلية لناس غرباء، وكانت الأخت تركض جيئة وذهاباً، خلف الطاولة، تنفيذاً لمطالب الزبائن، لكن طاقات الأسرة لم تكن تسمح بأكثر من ذلك. والجرح في ظهر غريغور بدأ يؤلمه وكأنه جرح جديد، وذلك عندما كانت الأم والأخت، بعد أن تكونا قد أوصلتا الوالد إلى الفراش، تعودان، وتتركان العمل، وتقتربان من بعضهما بعضاً، واضعتين خدّاً على خدّ، عندما تقول الأم الآن وهي تشير إلى غرفة غريغور: «اغلقي هناك الباب يا غرِتِه»، وعندما يكون غريغور الآن في وسط الظلام مرة أخرى، فيما تكون الامرأتان في الغرفة المحاذية تمزجان عبراتهما، أو ربما تروحان تحدّقان إلى المائدة وهما جافّتا العيون.

وأمسى غريغور يمضي الليالي والنهارات دون أن ينام أبداً تقريباً. وكان يظن أحياناً أنه عند انفتاح الباب في المرة القادمة سوف يتولى هو شؤون الأسرة بنفسه مرة أخرى تماماً كما كان يفعل من قبل؛ ومرةً أخرى، بعد هذه المدة الطويلة، تراءت في أفكاره صور مدير المؤسسة وكبير الموظفين، والمساعدين، والصبيان المتدربين، والبواب الذي كان متبلّد الذهن إلى ذلك الحد، وصديقين أو ثلاثة في مؤسسات أخرى، وإحدى منظفات الغرف في فندق من الفنادق الريفية، ذكرى عذبة عابرة، وأمينة صندوق في محل لبيع القبعات، كان قد خطب ودّها بجدّ وإلحاح ولكن ببطء... لقد تراءى له هؤلاء جميعاً، وقد اختلطوا مع جماعة من الأغراب أو الناس الذين نسيهم. ولكن بدلاً من أن يساعدوه ويساعدوا أسرته، كان من المتعذر الوصول إليهم؛ وكان يرتاح عندما تغيب صورهم من ذهنه. وفي أحيان أخرى لم يكن في حالة نفسية تسمح له بالتفكير في أسرته، لكنه كان يمتلئ غيظاً للرعاية السيئة التي كان يلقاها، وعلى الرغم من أنه لم يكن يتصور شيئاً من شأنه أن يشتهي أكله، فقد كان يضع خططاً للوصول إلى مخزن المؤونة لكي يأخذ ما هو، على أية حال، حق من حقوقه حتى ولو لم يكن جائعاً. وبدون أن تفكر بعد الآن كيف يمكنها أن تسدي معروفاً خاصاً لغريغور، راحت الأخت، قبل أن تجري إلى عملها كل صباح وكل ظهيرة، تدفع إلى غرفة غريغور بقدمها وبأسرع ما يمكن أيما طعام، لكي تخرجه في المساء بضربة واحدة من

المكنسة، سواء جرى تذّوقه مجرد تذّوق أم ـ كما كان يقع في الأعم الأغلب ـ لم يُمسّ أبداً. ولم يكن في الإمكان أن يجري ترتيب الغرفة، هذا الترتيب الذي أخذت الآن تقوم به دائماً عند المساء، بأسرع مما كانت تفعل. وكانت خطوط من القذر تمتد على طول الجدران، وهنا وهناك كانت كرات من الغبار والنجاسة. وفي بادئ الأمر كان غريغور يعتصم في إحدى الزوايا الأكثر قذارة حين تصل الأخت، لكي يلومها نوعاً ما من خلال هذا الوضع. ولكنه كان من شأنه أن يظل هناك طوال أسابيع من غير أن يأمل من الأخت خيراً. فقد كانت ترى القذر تماماً كما كان يراه، لكنها كانت قد قررت أن تتركه حيث هو. ومع ذلك، وفي حساسية كانت جديدة عليها وكانت قد اعترت بعامة الأسرة كلها، سهرت على أن يظل ترتيب غرفة غريغور من عملها. وذات يوم أخضعت الأم غرفة غريغور لتنظيف كبير لم يتمّ لها إلا بعد استهلاك عدة دلاء من الماء ـ وهذه الرطوبة كلها، طبعاً، أزعجت غريغور أيضاً، وقد استلقى منطرحاً على الكنبة، متبرّماً، جامداً ـ لكن العقوبة حلّت بالأم. إذ ما أن لاحظت الأخت ذلك المساء التغيير في غرفة غريغور حتى اندفعت في غيظ شديد وشعور بالإهانة، إلى غرفة الجلوس، وانفجرت ـ رغم يدي الأم المرفوعتين في توسّل ـ باكية بكاء مريراً راح الوالدان ينظران إليه بادئ الأمر في ذهول وعجز ـ كان الوالد قد وثب مجفلاً، طبعاً، من كرسيه ـ حتى بدءا هما أيضاً بالتحرك؛ راح الأب يؤنّب الأم، عن يمينه، لأنها لم تترك غرفة غريغور لتقوم الأخت بتنظيفها، ويصرخ في وجه الأخت، عن يساره، قائلاً إنه لا يجوز لها البتة بعد اليوم أن تقوم بتنظيف غرفة غريغور؛ في حين حاولت الأم أن تجذب الأب إلى غرفة النوم، ذلك أنه كان قد فقد أعصابه واستبدّ به الاهتياج؛ وراحت الأخت، والنشيج يهزّها، تضرب سطح الطاولة بقبضتيها الصغيرتين؛ وفحّ غريغور بالغيظ فحيحاً عالياً لأن أحداً منهم لم يفكر في إغلاق الباب لكي يوفر عليه رؤية هذا المشهد وسماع هذه الضجة.

ومع ذلك، فحتى لو أصبحت الأخت، المرهَقة بعملها المهني، قد ملّت العناية بغريغور كما كانت تفعل من قبل، فما كان ينبغي على الأم أن تقف إلى جانب الأخت أبداً، ولم يكن ثمة حاجة لإهمال غريغور. إذ إن الخادمة كانت هنا. إن

هذه الأرملة العجوز، التي لا بد أنها في حياتها الطويلة قد اجتازت بمعونة بنيتها القوية كل سوء، لم تكن لتشعر باشمئزاز حقيقي من غريغور. ومن غير أن يستحوذ عليها أقل الفضول اتفق لها أن فتحت باب غرفته ذات يوم، ولدى رؤيتها غريغور ـ الذي أخذ، تحت وطأة المفاجأة، يعدو جيئة وذهاباً على الرغم من أن أحداً لم يكن يطارده ـ توقفت مندهشة وقد شبكت راحتيها. ومن ذلك الحين لم تنسَ قط أن تفتح باب غرفته قليلاً، لحظةً عابرة، صباحاً أو مساء، لكي تلقي نظرة عليه. بل لقد كان من دأبها، في بادئ الأمر، أن تدعوه إليها بكلمات تعتبرها، على الأرجح، ودّية، مثل: «تعال إلى هنا، يا خنفساء الروث العجوز!» أو «انظروا إلى خنفساء الروث العجوز!» ولم يكن غريغور يجيب بأيما شيء على هذه المخاطبات، بل كان يبقى جامداً حيث هو، وكأن الباب لم يُفتح قط. ليتهم، بدلاً من أن يتركوا هذه الخادمة تزعجه على غير جدوى حسب نزوتها، أن يأمروها بتنظيف غرفته يومياً! وذات صباح مبكر ـ كان المطر يقرع زجاج النوافذ، ولعل ذلك كان إيذاناً بأن الربيع على الأبواب ـ استبدّ السخط بغريغور حين بدأت من جديد عباراتها الجوفاء، حتى لقد توجه نحوها، وكأنه يريد أن يهاجمها، بيد أن حركته كانت بطيئة واهنة. ولكن الخادمة، بدلاً من أن تخاف، اكتفت بأن رفعت عالياً كرسياً كان قرب الباب. وفيما وقفت هناك فاغرة الفم كان واضحاً أنها لا تعتزم إطباقه إلا بعد أن يهوي الكرسي الذي بيدها على ظهر غريغور. «إذاً، فأنت لن تقترب أكثر مما فعلت؟» سألت فيما استدار غريغور من جديد، وأعادت الكرسي إلى الزاوية في هدوء.

كان غريغور قد انتهى، الآن، إلى أن لا يأكل شيئاً تقريباً. وفقط حين كان يتفق له أن يمرّ بالطعام المعدّ له كان يضع لقمة في فمه على سبيل اللهو، ويبقيها هناك طوال ساعات، ثم يلفظها غالباً من جديد. وحسِبَ في بادئ الأمر أن الاكتئاب لحالة غرفته هو الذي حال بينه وبين الطعام، ولكنه سرعان ما رضي بالتغيرات التي طرأت على غرفته. كان قد أمسى من عادة الأسرة أن تضع داخل هذه الغرفة كل شيء لا يتسع له أيما مكان آخر، وكان ثمة أشياء كثيرة من هذا النوع الآن، إذ كانت إحدى غرف الشقة قد أخلِيَت لثلاثة من المستأجرين.

وكان هؤلاء الرجال الأجلاء ـ وثلاثتهم ذوو لحىً كاملة، كما لاحظ غريغور ذات مرة من شقّ الباب ـ حريصين على النظام، لا في غرفتهم هم فقط، ولكن، لمّا كان المقام قد استقر بهم هنا، في البيت بكامله، وفي المطبخ على وجه الخصوص إذاً. إنهم لم يكونوا يحتملون الكراكيب غير المفيدة أو حتى القذرة. وإلى هذا فقد حملوا معهم القسم الأعظم من قطع الأثاث الخاصة بهم. ومن أجل ذلك أصبحت أشياء كثيرة زائدة عن اللزوم، أشياء لا تباع حقاً، ولكن لم تشأ الأسرة أن ترمي بها جانباً أيضاً. هذه الأشياء كلها اتخذت سبيلها إلى غرفة غريغور. صفيحة الرماد، وصفيحة قاذورات المطبخ سواء بسواء. وكل ما كان غير قابل للاستعمال في الوقت الحاضر، كانت الخادمة، التي كانت تقوم بكل شيء في عجلة بالغة، تقذفه ببساطة إلى غرفة غريغور؛ ومن حسن الطالع أن غريغور كان يرى، عادةً، الشيء المقذوف وحسب، واليد التي تمسك به. ولعل الخادمة كانت تنوي أن تسترد تلك الأشياء حين يسمح الوقت وتؤاتي الفرصة، أو أن تلقي بها كلها إلى الخارج دفعة واحدة، ولكن في الواقع ظلت تلك الأشياء مستلقية في المكان نفسه الذي وصلت إليه لدى القذفة الأولى، إلا حين كان غريغور يشق طريقه عبر كومة النفايات ويزيحها بعض الشيء، بحكم الضرورة بادئ الأمر، لأنه لم يكن لديه مكان آخر يستطيع أن يزحف فيه، ولكن بتسلية متزايدة في ما بعد، على الرغم من أنه كان بعد تلك الجولات ينطرح جامداً لا حراك به، طوال ساعات، وقد استبدّ به الحزن والإعياء حتى الموت.

ولما كان المستأجرون يتناولون أحياناً عشاءهم في البيت، في غرفة الجلوس المشتركة، فإن باب تلك الغرفة كان يظل مغلقاً في بعض الأمسيات، لكن غريغور كان يستغني، في كثير من اليسر، عن انفتاح الباب، بل إنه في كثير من الأمسيات التي أبقي الباب خلالها مفتوحاً لم ينتفع منه، وإنما كان، دون أن تلاحظ الأسرة، ينطرح في أظلم زاوية من زوايا غرفته. ولكن الخادمة تركت الباب، ذات مرة، مفتوحاً بعض الشيء، ولقد ظل مفتوحاً هكذا حتى عندما أقبل المستأجرون عند المساء وأضيء المصباح. لقد جلسوا عند الطرف الأعلى من المائدة حيث كان الوالد والوالدة وغريغور يجلسون في الأيام الخالية، ونشروا

فُوَط السُفرة، وأمسك كل منهم السكين والشوكة بيديه. وفي الحال ظهرت الأم من الباب الآخر حاملة طبقاً من اللحم، وفي إثرها مباشرةً الأخت حاملة طبقاً من البطاطا المصفوفة عالياً. كان الطعام ينفث بخاراً كثيفاً. وانحنى المستأجرون على الطبقين الموضوعين أمامهم وكأنهم أرادوا أن يفحصوهما قبل الأكل. والواقع أن الرجل الجالس في الوسط، والذي كان يبدو أنه صاحب الكلمة المسموعة لدى الآخرَين، قطع قطعة من اللحم، في موضعها من الطبق، لكي يكتشف فيما يبدو ما إذا كانت طرية بشكل كاف أم إذا كان ينبغي أن تعاد إلى المطبخ. وبدا عليه الرضا، وبدأت الأم والأخت، اللتان كانتا تراقبانه باهتمام شديد، تبتسمان بارتياح.

أما الأسرة نفسها فقد تناولت طعامها في المطبخ. ومع ذلك فقد دخل الوالد، قبل أن يمضي إلى المطبخ، إلى هذه الغرفة وطاف بالمائدة، مبالغاً في الانحناء، ممسكاً قبعته في يده. ووقف المستأجرون كلهم وغمغموا بين لحاهم بشيء ما. حتى إذا خلوا إلى أنفسهم من جديد تناولوا طعامهم في صمت يكاد يكون تاماً. وقد بدا غريباً لغريغور أن يميز دائماً من بين مختلف الأصوات المنبعثة من المائدة صوتَ أسنان المستأجرين الماضغة، وكأنما كان هذا إيذاناً لغريغور بأن المرء يحتاج لكي يأكل، إلى أسنان، وأنه لا يستطيع أن يصنع شيئاً بأجمل فكّين خاليين من الأسنان. وقال غريغور في ذات نفسه وهو مشغول البال: «إني لأشتهي الطعام، ولكن ليس هذه الأشياء. كيف يتغذّى هؤلاء المستأجرون، في حين أموت أنا جوعاً!»

في ذلك المساء نفسه ـ لم يتذكر غريغور أنه طوال هذه المدة قد سمع عزف الكمان ـ تعالى صدى العزف على الكمان قادماً من المطبخ. كان المستأجرون قد أنهوا عشاءهم، وكان ذلك الجالس في الوسط قد أخرج جريدة وأعطى كلاً من الرجلين الآخرين صفحة، وأنشأ الثلاثة يقرؤون، وهم يستندون بظهورهم على المقاعد ويدخنون. وحين بدأ العزف على الكمان، أرهفوا آذانهم، وانتصبوا واقفين، ثم مضوا على رؤوس أصابعهم إلى باب الرواق، حيث وقفوا محتشدين.

ولا ريب في أن حركاتهم قد سُمعت في المطبخ، ذلك بأن الوالد صاح: «أيكون العزف ربما مزعجاً بالنسبة للسادة؟ يمكن وقفه في الحال». قال المستأجر الذي يجلس في الوسط: «على العكس. ألا تستطيع الآنسة أن تأتي إلينا وتعزف في هذه الغرفة، حيث الجو أكثر ملاءمة وأدعى إلى الراحة؟» فصاح الوالد وكأنه كان هو العازف على الكمان: «أوه طبعاً». ورجع المستأجرون إلى غرفة الجلوس، وانتظروا. وفي الحال وصل الوالد ومعه حامل أوراق النوتة الموسيقية، والوالدة حاملةً النوتة، والأخت حاملةً الكمان. وفي هدوء أعدّت الأخت كل شيء للعزف. أما الوالدان، اللذان لم يؤجّرا من قبل غرفاً قط ومن هنا بالغا في المجاملة إزاء المستأجرين، فلم يغامرا في الجلوس على كرسييهما الخاصين بهما. لقد استند الوالد إلى الباب، ويده اليمنى مقحمة بين زرّين اثنين من بزّته الرسمية، التي كانت مزرّرة على نحو رسميّ. أما الأم فقد حصلت على كرسي قدّمه لها أحد المستأجرين، وجلست على انفراد في إحدى الزوايا، إذ تركت الكرسي حيث اتفق للمستأجر أن وضعه.

وشرعت الأخت في العزف. وراقب الأب والأم، من كلا الجانبين، حركات يديها في اهتمام بالغ. وغامر غريغور، وقد جذبته الموسيقى، فتقدم إلى الأمام بعض الشيء حتى أمسى رأسه في الواقع داخل غرفة الجلوس. ولم يكد يستشعر أيما دَهَشٍ لقلة مراعاته للآخرين في المدة الأخيرة؛ في الماضي كانت هذه المراعاة فخراً له. مع أنه كان لديه الآن بالذات أسباب أكثر لكي يتوارى عن العيان، إذ إنه، من جرّاء الغبار الذي كان يملأ غرفته ويتطاير لدى أدنى حركة، أصبح هو أيضاً مغطى بالغبار كلية؛ وانسحب معه زغب وشعر وبقايا طعام، فقد كانت هذه كلها عالقة بظهره وجانبيه. وكانت لا مبالاته بكل شيء كبيرةً إلى درجة جعلته لا يفكر في الانقلاب على ظهره وتنظيف نفسه بالسجادة، كما كان يفعل فيما مضى عدة مرات في اليوم. وعلى الرغم من حالته هذه، فإنه لم يتورع عن التقدم قليلاً فوق أرض غرفة الجلوس النظيفة.

لكنّ أحداً لم يعبأ به أيضاً. كانت الأسرة مستغرقة استغراقاً كلياً في أنغام

الكمان؛ أما المستأجرون، الذين كانوا أولاً قد وقفوا، وأيديهم في جيوبهم، على مقربة دانية من حامل أوراق النوتة بحيث كان في استطاعتهم كلهم أن يقرؤوا اللحن، وهو ما أزعج الأخت من غير شك، ما لبثوا أن انسحبوا إلى النافذة، نصف متهامسين برؤوس مطأطئة، وظلوا هناك فيما راح الوالد يراقبهم بقلق. والواقع أنه ظهر بوضوح كبير أن ظنهم في سماع عزف جميل أو ماتع قد خاب، وأنهم استمعوا إلى ذلك العزف أكثر مما ينبغي، ولم يحتملوا إقلاق راحتهم إلا بدافع من المجاملة ليس غير. والطريقة، بخاصة، التي راحوا ينفثون بها، كلهم، دخان السيكار عالياً في الهواء، من خلال الأنف والفم، كانت تدلّ على اهتياج كبير. ومع ذلك، فقد كانت الأخت تعزف عزفاً جميلاً جداً. كان وجهها مائلاً إلى الجانب، وكانت عيناها تتابعان النوتة الموسيقية متابعة مركّزة محزونة. وزحف غريغور إلى الأمام بعض الشيء، وأبقى رأسه قريباً من الأرض لكي يكون في ميسور عينيه، ربما، أن تلتقيا بعينيها. هل كان حيواناً، والموسيقى تؤثر في نفسه مثل هذا التأثير؟ وخيّل إليه أن الطريق كانت تنفتح أمامه إلى الغذاء المجهول الذي كان يشتهيه. ووطد العزم على الاندفاع إلى أمام حتى يصل إلى الأخت، وعلى الشدّ بتنورتها والإشارة لها، بذلك، بأن عليها أن تأتي بكمانها إلى غرفته، إذ لا أحد هنا يقدّر عزفها مثل ما أراد هو تقديره. وكان يريد أن لا يدعها تفارق غرفته بعد الآن، على الأقل ما دام على قيد الحياة؛ وكان على منظره الرهيب أن يصبح مفيداً بالنسبة إليه، لأول مرة؛ كان يريد أن يوجد عند جميع أبواب غرفته في وقت واحد ويفحّ في وجه المعتدين؛ ولكن الأخت ينبغي أن لا تحتاج إلى أي إكراه، وإنما عليها أن تبقى معه طوعاً واختياراً؛ يجب أن تجلس إلى جانبه على الكنبة، وتحني أذنها نحوه، وهو سوف يُسرّ إليها أنه كان قد وطد النية على إرسالها إلى المعهد العالي للموسيقى، وأنه لولا البليّة التي عاقته كان يعتزم، في عيد الميلاد الماضي ـ هل مضى عيد الميلاد؟ ـ أن يقول ذلك للجميع من غير أن يهتمّ بأي اعتراض. وبعد هذا الاعتراف سوف يكون من شأن الأخت أن يستحوذ عليها التأثر وتنفجر بالبكاء، وعندئذ يرفع غريغور نفسه

إلى كتفها، ويطبع قبلة على جيدها، ذلك الذي أخذت، منذ أن بدأت تذهب للعمل، تبقيه عارياً من أي طوق أو ياقة.

«يا سيد سامسا!» نادى المستأجر الأوسط الوالدَ، ومن غير أن يضيع أية كلمة إضافية، أشار بسبابته إلى غريغور الذي كان يتقدم ببطء إلى الأمام. وأصيب الكمان بالبكم، وابتسم المستأجر الأوسط لصديقيه، باديءَ الأمر، هازّاً رأسه، ثم نظر إلى غريغور كرة أخرى. وبدلاً من أن يطرد غريغور إلى خارج الغرفة بدا الوالد وكأنه رأى أن الحاجة أمسّ إلى البدء بتهدئة المستأجرين، على الرغم من أنهم لم يهتاجوا البتة، وعلى الرغم من أنهم، فيما يظهر، وجدوا مشهدَ غريغور أكثر إيناساً من ألحان الكمان. وهرع نحوهم، وبسط ذراعيه محاولاً أن يحثّهم على الارتداد إلى غرفتهم، وأن يحجب غريغور عن أعينهم في آنٍ معاً. وغضبوا الآن، بعض الشيء، فعلاً، ولم يكن في ميسور المرء أن يدري لماذا: بسببٍ من مسلك الوالد، أم لأنه قد اتضح لهم اللحظة أنه كان لهم، من غير أن يدروا، جار مثل غريغور في الغرفة الملاصقة. وطلبوا تفسيراً من الوالد، ولوّحوا بأيديهم مثله، وشدّ كل منهم بلحيته في نزق، ولم ينقلبوا إلى غرفتهم إلا في بطء. وفي غضون ذلك تجاوزت الأخت حالة الذهول التي كانت قد أصابتها عندما قطع عزفها هذا القطع المفاجئ، ورجعت إلى صوابها، واستجمعت نفسها في الحال بعد أن وقفت لحظةً ممسكةً الكمان والقوس بيدين مُسبَلتين في خَوَر، ومحدّقةً إلى النوتات وكأنها تواصل العزف، ووضعت الكمان في حضن الأم ـ التي كانت لا تزال جالسة على كرسيها تعاني من ضيق النفس ورئتاها تعملان بعنف ـ واندفعت تعدو إلى الغرفة المجاورة، حيث كان المستأجرون يقتربون منها بسرعة أكبر تحت إلحاح الوالد. وقد كان في إمكان المرء أن يرى الوسائد والبطانيات التي على الفُرُش تتطاير تحت أصابعها المتمرّسة وترتّب ترتيباً. وقبل أن يصل المستأجرون، فعلاً، إلى غرفتهم، كانت قد أتمّت تسوية الفرش وانسلّت من المكان. وبدا الوالد وقد استبدّ به عناده مرة أخرى إلى حد جعله ينسى كل احترام ينبغي على كل حال أن يحيط المستأجرين به. لقد ظل يسوقهم قدماً ويسوقهم قُدُماً حتى ضرب المستأجر الأوسط الأرض بقدمه ضرباً عاصفاً، عند

باب الحجرة نفسه، وبذلك أوقف الوالد حيث هو. «أعلن هنا»، قال المستأجر، رافعاً إحدى يديه، وباحثاً أيضاً بعينيه عن الأم والأخت، «أنني نظراً للظروف الكريهة السائدة في هذا البيت وهذه الأسرة - وهنا بصق فجأة على الأرض - إنما ألغي عقد إيجار غرفتي في الحال. ولن أدفع طبعاً شيئاً البتة عن الأيام التي قضيتها هنا. بل على العكس من ذلك، سوف أفكر في ما إذا كنت سأواجهكم بأية مطالب - صدقوني - معللة بسهولة للغاية». وكفّ عن الكلام، وحدّق إلى أمام، وكأنه كان يتوقع شيئاً ما. وفعلاً انخرط صديقاه على الفور قائلين: «ونحن أيضاً نلغي العقد في الحال». وعندئذ أمسك بمقبض الباب، وأوصده في صخب.

وترنح الوالد، ويداه تتلمسان الطريق إلى كرسيه، وترك نفسه يسقط عليه. وبدا كأنه كان يتمطّى هناك ليأخذ سِنَتَهُ المسائية المعتادة، ولكن الاهتزازات الشديدة لرأسه الواهي أظهرت أنه أبعد ما يكون عن الرقاد. وكان غريغور يستلقي ساكناً طوال الوقت في الموضع الذي اكتشفه فيه المستأجرون. كان في خيبة الأمل الناشئة عن إخفاق خطته، وربما في الضعف الناشئ عن الجوع الكثير أيضاً، ما جعل الحركة أمراً متعذراً عليه. وخشي، بقدر من اليقين، حدوث انهيار عام ينفجر عليه في اللحظة التالية، فظل في مكانه ينتظر. وحتى إنه لم يصب بأي ذعر من الكمان الذي زلّ عن حضن الأم من تحت أصابعها المرتجفة، وأطلق نغمة رنانة.

«أيها الوالدان العزيزان»، قالت الأخت وهي تصفع المائدة على سبيل التمهيد، «إن الأمور لا يمكن أن تستمرّ على هذا المنوال. إذا كنتما لا تدركان ذلك، فإنني أدركه. وأنا لا أريد أن ألفظ اسم أخي أمام هذا الغول، ولذا فإن كل ما أقوله هو هذا: يجب أن نحاول التخلص منه. لقد حاولنا كل ما في وسعنا أن نُعنَى به، وأن نصبر عليه أقصى ما يستطيع الإنسان أن يصبر، ولست أظن أن أي امرئ يستطيع أن يلومنا أقل اللوم».

«انها مُحقّة ألف مرة»، قال الوالد في ذات نفسه. أما الأم، التي كانت ما تزال تختنق بسبب من انقطاع أنفاسها، فبدأت تسعل سعالاً غائراً واضعةً يدها على فمها، وقد ارتسمت في عينيها تعابير الجنون.

واندفعت الأخت نحوها وأمسكت بجبينها. وبدا الوالد وكأن كلمات الأخت قد قادته إلى أفكار أكثر جزماً، وعدّل جلسته على نحو أكثر انتصاباً، وراح يداعب بأصابعه قبعة عمله الملقاة بين الأطباق التي كانت ما تزال على المائدة منذ أن تناول النزلاء عشاءهم، وينظر بين الفينة والفينة إلى غريغور الساكن.

«يجب أن نحاول التخلص منه»، قالت الأخت، الآن، للوالد وحده، فقد كانت الأم تسعل سعالاً جعلها لا تسمع كلمة واحدة. «إنه سوف يودي بكما، أرى ذلك آتياً. حين يتعيّن على المرء أن يعمل كثيراً، مثل ما نعمل، كلّنا، لا يستطيع أن يتحمّل فوق ذلك كله هذا التعذيب الأبدي في البيت. أنا أيضاً لا أستطيع احتمال الأمر أكثر مما فعلت». واستبدّت بها عاصفة من النحيب جعلت عبراتها تتساقط على وجه الأم، حيث كفكفتها على نحو آليّ.

«أيتها الطفلة»، قال الوالد في عطف، وفي تفهّم ملفت للنظر، «ولكن ما الذي نستطيع أن نفعله؟»

واكتفت الأخت بهزّ منكبيها كدليل على الشعور بالعجز الذي استحوذ عليها الآن، خلال عاصفة البكاء التي عصفت بها، بعد تلك الثقة التي كانت تعمر فؤادها من قبل.

«لو كان في ميسوره أن يفهمنا»، قال الوالد في لهجة نصف متسائلة؛ ولوّحت غرتِه، التي كانت لا تزال تنتحب، بإحدى يديها تلويحاً عنيفاً لكي تُظهر كم كان ذلك بعيداً عن التصور.

«لو كان في ميسوره أن يفهمنا»، كرر الوالد وأغمض عينيه لكي يستوعب قناعة الأخت أن الفهم كان مستحيلاً، «إذاً لكان من الجائز أن نتوصل معه إلى اتفاق ما. أما والحال كما هي الآن...»

«يجب أن يذهب»، صاحت الأخت، «هذا هو الحل الوحيد أيها الوالد. يجب عليك فقط أن تحاول التخلص من الفكرة القائلة إن هذا هو غريغور. إن

اعتقادنا بذلك طوال هذه المدة المديدة هو أصل شقائنا كله. ولكن كيف يمكن أن يكون هذا المخلوق هو غريغور؟ لو كان هذا هو غريغور إذاً لأدرك منذ مدة طويلة أن الكائنات البشرية لا تستطيع العيش مع مثل هذا المخلوق، ولمضى في سبيله طوعاً واختياراً. وعندئذ لن يكون لنا بَعدُ أخٌ ما، ولكننا سوف نكون قادرين على مواصلة الحياة وإبقاء ذكراه حيّة مكرّمة. أما في هذه الحال، فإن هذا الحيوان يطاردنا، ويطرد مستأجرينا، راغباً فيما يبدو في أن تكون الشقة كلها له، وفي أن يدعنا ننام في الشارع. حسبك أن تنظر، أيها الوالد»، وصرخت فجأة، «لقد عاد إلى مثلها مرة ثانية!» وفي ذعر بالغٍ لم يستطع غريغور أن يفهمه بحال، ذهبت إلى حدّ مفارقة الأم، وانتزعت نفسها بكل معنى الكلمة من كرسيها وكأنها تؤثر التضحية بالأم على البقاء على مثل هذا القرب من غريغور، واندفعت خلف الوالد، الذي نهض واقفاً أيضاً، وقد هيّجه سلوكها، وبسط ذراعيه نصف بسط وكأنه يريد أن يحميها.

ولكن لم يكن ليخطر على بال غريغور أن يثير الخوف في نفس أحد، وأخته بخاصة. ولم يكن قد فعل شيئاً سوى أنه بدأ يستدير لكي يزحف مرتدّاً إلى غرفته، لكن هذه الحركة بدت ملفتة للنظر، حيث كان ينبغي عليه، بسبب من حالته البائسة أن يستخدم رأسه أثناء القيام بحركة الاستدارة الصعبة، فرفعه مرات عديدة، وبعد كل مرة كان رأسه يرتطم بالأرض. توقف غريغور وجال نظره في ما حوله. وبدا أن مقصده الطيب قد أدرِك؛ كان الذعر مؤقتاً ليس غير. والآن راح الجميع ينظرون إلى غريغور في صمت وحزن. كانت الأم مستلقية في كرسيها، وكانت رجلاها ممدودتين على نحو متصلب وقد ضُغِطت إحداهما على الأخرى، وكانت عيناها مغمضتين تقريباً من الإعياء. وكان الوالد والأخت جالسين جنباً إلى جنب، وقد وضعت الأخت ذراعها حول رقبة الوالد.

«والآن يجوز لي ربما أن أستدير»، قال غريغور في ذات نفسه واستأنف عمله. ولم يستطع أن يكبت اللهاث إعياءً، وكان عليه أن يستريح بين الفينة والفينة. كما أن أحداً لم يلحّ عليه، وقد تُرك له نفسه كل شيء. وحين أتمَّ الاستدارة، بدأ

في الحال يزحف عائداً باستقامة. وقد تعجّب من المسافة التي تفصل ما بينه وبين غرفته، ولم يستطع أن يفهم كيف كان، في حاله الضعيفة تلك، قد قطع الطريق نفسه قبل فترة قريبة جداً من غير أن يَلحظ ذلك أو يكاد. وإذ انصبّ اهتمامه على الزحف وحده وبأسرع ما يستطيع، فإنه لم يلاحظ، تقريباً، أنه لم تبدر من أسرته كلمة واحدة أو همسة واحدة تزعجه. ولم يدر رأسه إلا عندما بلغ الباب، وهو لم يدره على نحو كامل لأنه استشعر عضلات رقبته تتصلّب، ولكن أداره على نحو كافٍ لكي يرى أن شيئاً لم يتغيّر خلفه باستثناء أن الأخت قد نهضت على قدميها. وسقطت نظرته الأخيرة على الأم، التي كانت الآن تغطّ في النوم كلية.

ولم يكد يدخل غرفته حتى أُغلِق الباب، على عجل، وأُوصد بالمزلاج والقفل. والضجة المفاجئة التي انبعثت من خلفه أثارت الذعر في نفسه إلى درجة جعلت أرجله الصغيرة تصطكّ من تحته. كانت الأخت هي التي أظهرت تلك العجلة كلها. كانت قد وقفت منتصبة وراحت تنتظر، وكانت قد وثبت وثبة رشيقة إلى أمام - إن غريغور لم يسمعها وهي تتقدم - وصاحت تخاطب الوالدين، وهي تدير المفتاح في القفل: «وأخيراً!»

«والآن؟» سأل غريغور نفسه وهو يجيل طرفه في الظلمة. وسرعان ما اكتشف أنه، الآن، لم يعد في ميسوره أن يبدي حراكاً. ولم يدهشه ذلك، بل لقد بدا من غير الطبيعي أن يكون قادراً بعد فعلاً على التحرك بهذه الأرجل الصغيرة الرفيعة. أما في ما عدا ذلك، فقد استشعر ارتياحاً نسبياً. صحيح أن جسده كله كان يؤلمه، ولكن بدا وكأن الألم كان يتضاءل ويتضاءل تدريجياً وأنه سوف يتلاشى آخر الأمر. وكان لا يكاد يحسّ التفاحة المهترئة في ظهره، والمنطقة الملتهبة المحيطة بها، والمغطاة كلها بالغبار الدقيق. وكان يفكر في أسرته بحنان وحبّ. وكان رأيه بضرورة تواريه ربما أكثر جزماً من رأي أخته. وأقام على حاله تلك من التأمل الفارغ الآمن حتى أعلنت ساعة البرج الثالثة صباحاً. وعاش حتى رأى أول انتشار عام للنور خارج النافذة. ثم غاص رأسه كلية، على غير إرادته، إلى أرض الغرفة، وانطلقت من منخريه آخر زفرة من أنفاسه الواهنة.

وحين وصلت الخادمة في ساعة مبكرة من الصباح ـ وكانت بحكم قوتها وسرعتها تقوم، مهما طلب منها تجنّب ذلك، بصفق جميع الأبواب في عنف صارخ إلى درجة لم يكن في ميسور أحد في الشقة كلها أن ينعم بأيما نوم هادئ بعد وصولها ـ لم تلاحظ في بادئ الأمر شيئاً غير عادي عند زيارتها القصيرة المعتادة لدى غريغور. لقد حسبت أنه تعمّد الاستلقاء من غير حراك متظاهراً بأنه يحسّ بالإهانة؛ كانت تنسب إليه كل ضرب من ضروب الذكاء. وإذ اتفق أن كانت تحمل في يدها المكنسة ذات المقبض الطويل، فقد حاولت أن تداعبه بها من الباب. حتى إذا لم يُحدِث ذلك أيّ رجع، استشعرت غيظاً، ونخزت غريغور بعض الشيء، ولم يوقظ انتباهها إلا عندما دفعته من موضعه من غير أن تلقى مقاومة ما. وما لبثت أن أدركت حقيقة الأمر، واتسعت عيناها، وأطلقت صفرةً، ومع ذلك لم تضع كثيراً من الوقت، بل فتحت بقوة باب حجرة النوم، وصرخت في الظلام بأعلى صوتها: «انظروا، لقد نفق، إنه يستلقي هنا وقد نفق بالكلية!»

وجلس الزوجان سامسا معتدلين في سرير الزوجية، وانشغلا في التغلب على الخوف على الخادمة قبل أن يدركا طبيعة النبأ الذي أعلنته. ولكن السيد سامسا والسيدة سامسا غادرا السرير، عندئذ، على جناح السرعة، كلٌ من جانب، وقد ألقى السيد سامسا البطانية على منكبيه، وخرجت السيدة سامسا وهي ترتدي منامتها ليس إلّا؛ وعلى هذه الهيئة دخلا إلى غرفة غريغور. وفي غضون ذلك فتح باب حجرة الجلوس أيضاً حيث كانت غرِتِه تنام منذ مجيء المستأجرين. كانت ترتدي ملابسها كاملةً وكأنها لم تأو إلى الفراش، وبدا وجهها الشاحب أيضاً دليلاً على ذلك. «ميت؟» قالت السيدة سامسا ناظرةً، في تساؤل، إلى الخادمة، على الرغم من أنه كان في استطاعتها أن تفحص كل شيء بنفسها، بل وتدركه من غير فحص. «هذا ما أريد أن أقوله»، قالت الخادمة ودفعت، للتدليل على كلامها، جثة غريغور إلى ناحية ما، مسافةً طويلة، بعصا مكنستها. وقامت السيدة سامسا بحركة وكأنها تريد أن توقف المكنسة، لكنها لم تفعل. «حسناً»، قال السيد سامسا، «الآن يمكننا أن نحمد الله». ورسم على صدره إشارة

الصليب، وتبعته النسوة الثلاث في ذلك. وقالت غرته التي لم تفارق عيناها الجثة قط: «حسبكم أن تنظروا إلى مبلغ هزاله! لقد انقضى عليه زمن طويل لم يأكل خلاله شيئاً ما. كان الطعام يخرج من غرفته مثلما يدخل». والواقع أن جسد غريغور كان مسطحاً وجافاً بالكلية، ولم يكن بالإمكان الكشف عن ذلك إلا الآن، حين لم يعد قائماً على أرجل ولم يبق شيء عدا ذلك يحوّل النظر.

«ادخلي إلينا لحظةً، يا غرته»، قالت السيدة سامسا بابتسامة تحسّر، وتبعت غرته الوالدين إلى حجرة النوم، من غير أن تملك نفسها عن النظر خلفها إلى الجثة. وأغلقت الخادمة الباب، وفتحت النافذة على مصراعيها. وعلى الرغم من الصباح الباكر جداً، فقد كان في ميسور المرء أن يستشعر بعض الدفء في الهواء الطلق، إذ كان الوقت هو آخر آذار.

وخرج المستأجرون الثلاثة من حجرتهم وعجبوا إذ لم يجدوا طعام الصباح. كانوا قد نُسوا. «أين فطورنا؟» قال المستأجر الأوسط للخادمة في تبرّم. لكن هذه وضعت أصبعها على شفتيها، وأشارت إليهم، في تعجّل، ومن غير أن تنطق بكلمة، بأن يذهبوا إلى غرفة غريغور، فجاءوا، ووقفوا - وأيديهم في جيوب ستراتهم الرثة بعض الشيء - حول جثة غريغور في الغرفة، وقد أشرق فيها الآن ضوء النهار.

عندئذ فُتح باب حجرة النوم، وبرز السيد سامسا في بذلته النظامية، متأبطاً ذراع زوجته من ناحية، وذراع ابنته من أخرى، وبدوا كلهم وقد قرح البكاء أعينهم بعض الشيء. ومن حين إلى حين كانت غرته تلصق وجهها بذراع الوالد.

«اتركوا منزلي في الحال!» قال السيد سامسا، مشيراً إلى الباب من غير أن يحرر نفسه من الامرأتين. «ماذا تعني بذلك؟» قال المستأجر الأوسط، ذاهلاً بعض الشيء، في ابتسامة متصنعة. ووضع الآخران أيديهما خلف ظهريهما، وراح كل منهما يفرك يديه بلا انقطاع وفي شبه توقّع سارّ لنزاع كبير كان لا بدّ له أن ينتهي لصالحهما. «أنا أعني ما أقوله تماماً»، أجاب السيد سامسا، وهو يتقدم في

خط مستقيم، مع مرافقتيه الاثنتين، نحو المستأجر. في بادئ الأمر وقف هذا في سكينة وهو ينظر إلى أرض الغرفة، وكأن الأمور تتخذ نظاماً جديداً في رأسه. «فنذهب إذاً»، قال رافعاً بصره نحو السيد سامسا وكأنه، في تواضع داهمه فجأة، يطلب حتى لهذا القرار موافقة جديدة. وهزّ السيد سامسا رأسه عدة مرات هزّاً مقتضباً، وهو يحلق مندهشاً. عندئذ مضى المستأجر، فعلاً، في خطوات واسعة، إلى الرواق. كان صديقاه قد أصغيا إلى الحديث هنيهة، وكانا قد كفّا عن فرك أيديهما، ثم أخذا يَثِبان خلفه وكأنهما خشيا أن يصل السيد سامسا قبلهما إلى الرواق، ويقطع الاتصال مع زعيمهما. وفي الرواق أخذ الثلاثة قبعاتهم من المشجب، وعصيّهم من سلة المظلات، وانحنوا في صمت، وغادروا الشقة. وفي ارتياب ظهر في ما بعد أنه غير ضروري البتة لحق بهم السيد سامسا والامرأتان إلى منبسط السلّم، واتكؤوا على الدرابزين وراحوا يراقبون الرجال الثلاثة وهم يهبطون السلم الطويلة هبوطاً بطيئاً ولكنه مطّرد، غائبين عن البصر عند منعطف بعينه من السلم في كل دور من أدوار البناء، بادين للعيان مرة أخرى بعد لحظة أو نحوها؛ وكلما ابتعدوا تضاءل اهتمام أسرة سامسا بهم، وعندما التقاهم صبيّ قصّاب واجتاز بهم مصعّداً السلم في زهو، وعلى رأسه صينية، سارع السيد سامسا والامرأتان إلى مغادرة الدرابزين، ورجعوا إلى شقّتهم وكأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن أكتافهم.

لقد قرروا أن ينفقوا هذا اليوم في التماس الراحة والتنزّه. إنهم ما كانوا يستحقون هذه الإجازة وحسب، بل كانوا في أمسّ الحاجة إليها أيضاً. وهكذا جلسوا إلى المائدة، وكتبوا ثلاث رسائل اعتذار، واحدة من السيد سامسا إلى مجلس إدارته، وثانية من السيدة سامسا إلى مستخدِمها، وثالثة من غرِتِه إلى صاحب مخزنها. وفيما هم يكتبون دخلت عليهم الخادمة لتقول إنها منصرفة الآن، إذ إن عملها الصباحيّ قد انتهى. فاكتفى الكتّاب الثلاثة بادئ الأمر بأن هزّوا رؤوسهم من غير أن يرفعوا أبصارهم، وإذ لم ترغب الخادمة في الابتعاد، رفعوا أبصارهم في حنق. «والآن؟» سأل السيد سامسا. ووقفت الخادمة لدى

الباب مبتسمة، كما لو أن عليها أن تنبئ الأسرة نبأ سعيداً، لكنها لن تفعل ذلك ما لم تُسأل بعناية ودقة. كانت ريشة النعام الصغيرة المنتصبة على قبعتها، والتي كانت تزعج السيد سامسا طوال خدمتها، تتمايل بخفة في كل الاتجاهات. «ماذا تريدين أن تقولي إذاً؟» سألت السيدة سامسا التي كانت الخادمة تحترمها أكثر من غيرها. «نعم»، أجابت الخادمة، وضحكت ضحكة رقيقة جعلتها لا تستطيع المتابعة في الحال: «إذاً، ليس عليكم أن تشغلوا بالكم بأمر إبعاد ذلك الشيء الذي في الغرفة المجاورة. لقد دُبّرت هذه المسألة وانتهت». وانكبّت السيدة سامسا وغرته على رسالتيهما، وكأنهما تودّان مواصلة الكتابة؛ ولاحظ السيد سامسا أن الخادمة تحب أن تشرع بوصف ذلك كله بتفصيل، فصدّها بحزم بيدٍ ممدودة. ولكن لما كان لا يجوز لها أن تحكي، فقد تذكرت مبلغ العجلة التي كانت تستحثّها، وقالت، بعد أن شعرت بإهانة فيما يبدو: «وداعاً، جميعاً»، واستدارت بعنف، وغادرت الشقة صافقةً الأبواب صَفقاً مخيفاً.

«سوف تُسرَّح مساءً»، قال السيد سامسا، ولكنه لم يتلقّ أي جواب لا من زوجته ولا من ابنته. ذلك أن الخادمة بدت وكأنها قد أزعجت راحتهما التي لم تكد تتوفر لهما. ونهضتا، ومضتا إلى النافذة، وظلتا هناك، وقد أحاطت كل منهما عنق الأخرى بذراعيها. واستدار السيد سامسا في كرسيه لينظر إليهما، وراقبهما بهدوء مدة قصيرة من الزمان. ثم ناداهما: «تعاليا إلى هنا. اتركا أخيراً الأمور القديمة. والتفتا إليّ أيضاً بعض الشيء». ونزلت الامرأتان عند إرادته في الحال، وهرعتا إليه، ولاطفتاه، وأنجزتا رسالتيهما في عجلة.

بعد ذلك غادروا ثلاثتهم الشقة معاً، وهو ما لم يفعلوه منذ أشهر، وركبوا الترام إلى الخلاء أمام المدينة. وكانت أشعة الشمس تملأ أرجاء العربة التي كانوا يجلسون فيها وحدهم. وفيما هم يتكئون بظهورهم، في ارتياح، على مقاعدهم، تدارسوا إمكانياتهم في المستقبل، فتبيّن لهم عند النظر الدقيق أن هذه الإمكانيات لم تكن سيئة بحال، ذلك أن الوظائف الثلاث، والتي لم يسبق لهم في الواقع أن استفسروا عنها من بعضهم بعضاً، كانت كلها ملائمة، ولا سيما

أنها تبشّر بخير كثير في ما بعد. وأكبر تحسّن سريع في وضعهم لا بد أن ينشأ، بسهولة، من خلال تغيير الشقة. كانوا يريدون الآن أن يستأجروا شقة أصغر وأرخص، ولكنها أفضل موقعاً وأيسر تدبيراً من الشقة الحالية، والتي كان غريغور قد اختارها. وفيما هم يتجاذبون أطراف الحديث على هذا النحو، خطر لكل من السيد والسيدة سامسا، وفي اللحظة نفسها تقريباً، وهما ينظران إلى ابنتهما ذات الحيوية المتزايدة، أنها على الرغم من كل العناء والبلاء اللذين كانا قد جعلا وجنتيها شاحبتين، قد أينع جمالها في المدة الأخيرة وأصبحت فتاة وسيمة ناضرة. وفكرا، وقد أصبحا أكثر هدوءاً، وراحا يتفاهمان عبر النظرات وعلى نحو غير واع تقريباً، فكرا أن الوقت سيحين الآن لكي يبحثا لها عن زوج فاضل أيضاً. وكان الأمر أشبه بتوكيد لأحلامهما الجديدة ونياتهما الطيبة حين نهضت الابنة واقفة على قدميها، كأول من نهض عندما وصلوا، ومدّدت جسدها الفتيّ.

II - دراستان

١ ـ شرح مفردات وتعابير

١

الانمساخ: تعني كلمة Die Verwandlung الألمانية، بعامة، التحوّل؛ أي الانتقال كلياً من حالة إلى حالة أخرى. مثال: الساحر يحوّل الأمير ـ في الحكاية ـ إلى ضفدع؛ أي بمعنى: يمسخه. وجاء في قاموس (المنجد): مسخ مَسخاً: حوّل صورتَهُ إلى صورةٍ أقبح منها. ومنه يقال «مسخهُ اللهُ قرداً»، فهو مَسْخٌ.

والكلمة الألمانية لا تعني، بحال من الأحوال، المَسخ؛ أي الشخص الذي جرى مسخه؛ وإنما تعني فعل الانمساخ.

كما أنها لا تتضمن تحديد في ما إذا كان التحول سلبياً أم إيجابياً. لذا، فإن الترجمة الأكثر دقة لهذه الكلمة هي «التحول».

وفي ترجمة منير البعلبكي لقصة **الانمساخ** وردت هذه الكلمة مرتين بشكل صحيح في نص القصة، أما في العنوان فقد وردت خطأ: المَسْخ. وهكذا عُرفت هذه القصة في اللغة العربية بعنوان خاطئ طوال أكثر من أربعين عاماً.

وفي الجملة الأولى من القصة يستخدم كافكا اسم الفاعل**verwandelt**، الذي يعني: متحوّلاً، أي قد تحوّل.

وفي رسائله إلى فيليس باور ذكر كافكا عنوان القصة بدون أداة التعريف: **انمساخ**.

•

إن موضوع الانمساخ يوجد بكثرة في التراث العربي والتراث الأوروبي... في

الأساطير والحكايات الشعبية والآداب. وهناك نماذج من الانمساخ: انمساخ كعقاب، أو انمساخ كحرمان، أو انمساخ كإنقاذ. ويرى مفسرون أن هذا الأخير هو ما قصده كافكا في قصته.

حين أفاق غريغور سامسا ذات صباح من أحلام مزعجة، وجد نفسه وقد تحول في فراشه إلى حشرة ضخمة.

في مقطع محذوف من نصوص **المحاكمة** يوضح يوزف ك. في حديث مع أحد الشخوص: **قال لي أحدهم، لم أعد أذكر من كان، إنه لمن الغريب أن المرء، حين يفيق باكراً، يجد كل شيء، بصفة عامة على الأقل، في الموضع نفسه دون زحزحة كما كان في المساء. فقد كان المرء في النوم وفي الحلم، ظاهرياً على الأقل، في حالة تختلف اختلافاً جوهرياً عن اليقظة؛ وكما قال ذلك الرجل، وهو على صواب كلياً، لا بدّ من التحلّي بدرجة لا نهائية من حضور الذهن وسرعة البديهة لكي يتمكن المرء، وهو يفتح عينيه، من إدراك كل شيء موجود هنا في الموضع الذي تركه في المساء. لذا فإن لحظة الاستيقاظ هي اللحظة الأكثر خطراً في اليوم، إذا اجتازها المرء دون أن يُجذب من مكانه ويُبعد إلى مكان ما، يصبح في مقدوره أن يمضي اليوم كله بارتياح**(*).

غريغور سامسا: مثلما يرمز جيورج بندمان في قصة **الحكم**، يرمز **غريغور سامسا**، هنا أيضاً، إلى فرانز كافكا. **عدد الأحرف واحد** في Samsa وKafka **والحرفان الصوتيان أيضاً موجودان في الموضع نفسه** من الاسمين، كما كتب كافكا عن جزء Bende من بندمان، الشخص الرئيسي في قصة **الحكم**. Kafka = Bende. وفي حالة Samsa وKafka ثمة تطابق أكبر، حيث أن الحرف الصوتي، المتكرر في الموضع نفسه، هو واحد في الاسمين.

حين... وجد نفسه: يبدو هنا أن الأمر يتعلق بطريقة سرد ذات صبغة تقليدية. لكن هذا الانطباع خاطئ. إذ إن الأمر الحاسم بالنسبة لتشكيل المنظور للقصة بكاملها هو حقيقة أن جميع الأقوال تتعلق، منذ البداية، بالشخص الرئيسي غريغور سامسا

(*) كل ما هو مطبوع بخط غامق هو اقتباس من كتابات كافكا.

ووعيه؛ الأمر الذي دفع النقاد إلى افتراض وجود تطابق بين وعي المنظور ووعي السرد وتطابق بين الكاتب القاص والشخصية الرئيسية في قصته.

من أحلام مزعجة: يصبح موضوع الحلم، وتناقض الحلم والواقع، مهماً بالنسبة إلى غريغور حين يتساءل عما حدث له وعن أسباب ذلك. وعلى الفور يجري تأكيد واقعية الانمساخ: **لم يكن حلماً.**

الفراش: غالباً ما يكون الفراش لدى كافكا مكان الموت والانبعاث والحقيقة والوحي.

حشرة ضخمة: في هذه الكلمة إشارة إلى تقويم كافكا لنفسه بناء على الإهانات التي كان والده يوجهها له ولأصدقائه بتشبيههم بحيوانات. والانمساخ يمثل استعارة متواصلة، من حيث أنه يؤخذ حرفياً ويُرى كحدث وقع.

حجرة بشرية: تركيب كلمات غير مألوف، وهو على قياس «حجرة الأطفال» مثلاً. تتضمن هذه الكلمة طبيعة الحيوان الذي تحوّل، في حين أن المحيط القريب يظهر لغريغور، المراقب والمتأمل، محيطاً بشرياً مألوفاً بديهياً.

الصورة التي كان قد اقتطعها، منذ وقتٍ قريب، من إحدى المجلات المصورة ووضعها في إطار مذهّب جميل: في هذا التعبير ثمة إشارة جنسية: إطار مذهّب، سيدة، فرو. وغريغور يفهم إغراء الصورة الحقيقي، وينقذها فيما بعد من الأم والأخت، بأن **يغطيها** بجسمه.

النافذة: هي صلة الوصل مع العالم الخارجي.

وظيفة منهكة: كان كافكا يكره وظيفته المهنية، لأنها كانت تعيقه عن الكتابة. وشكواه من المكتب تتكرر في رسائله إلى فيليس، مثل: **المكتب رعب، وإنني عاجز كلياً عن التفاهم مع المكتب.** وطبقاً لذلك يقدم غريغور عالم الوظيفة بصفته تكليفاً بأكثر مما هو في طاقة الإنسان: الروتين الأبدي.

إزعاجات العمل في المحل الأصلي... عناء السفر... الخوف... وغياب الاتصالات الإنسانية: كل هذا يؤدي إلى ضعف الحافز الداخلي، يجعل الانمساخ يبدو انمساخ حرمان، انمساخاً ذاتياً ناتجاً عن الرغبة اللاواعية بالتخلص من العذاب النفسي الذي يسببه العمل المكتبي.

الاتصالات: يجري هنا مواجهة طريقتي فهم لكلمة **اتصال**: أولاً الاتصال الذي لا بد منه في العمل والذي يثير المتاعب ويزيد ضعف الحافز الداخلي لدى غريغور. وثانياً الاتصال بين الناس. من شأن القارئ أن يتوقع بالأحرى كلمة «تعامل». كما أن كلمة اتصال تستخدم مع كلمة «جنسي». وهنا يمكن أن يجري تداعي أفكار إلى كلمة اتصال جنسي، وذلك كما فسّر كافكا بنفسه الجملة الختامية في قصة **الحكم** (حركة المرور اللامتناهية كعملية **دفق قوي**). إن غريغور، بالإضافة إلى شعوره ببرود عواطف الناس، هو محبط جنسياً أيضاً.

نساء الحريم: هنا تفهم حياة نساء الحريم كمثال للراحة والترف. **فلأجرب ذلك مع رئيسي! عندئذ سوف أسرّح من عملي على الفور**: بشكل واضح تظهر علاقة العمل كعلاقة تبعية، كما بَيَّنت قائمة الشكاوى السابقة. **من يدري فيما إذا لم يكن من شأن هذا أن يكون شيئاً صالحاً بالنسبة إليّ؟**: حتى الآن لم يكن غريغور قد تحدث سوى عن شروط عمله «اللا إنسانية». والقارئ لا يعلم سوى فيما بعد عن ديون الوالد والتزامات الابن بخصوص هذه الديون ـ غريغور كمعيل للأسرة ومسدد ديونها ـ ، لذا يبدو للقارئ، من طرف، أنه من الأفضل لغريغور أن يتخلى عن عمله، ومن طرف آخر أن التزاماته إنما تمثل عبئاً لا يحتمل. وفي الواقع يحمل غريغور رغبة لا واعية بأن يطرد من عمله، لكنه يخاف على أسرته. وبوضوح تنشأ صورة انفصام شخصية. إن غريغور هو، بالنسبة للوالد والأسرة، «الابن الطيب» من طرف؛ كما أنه «ابن ضائع» من طرف آخر، خرج، بانمساخه، من المجتمع. وفي الحياة العملية أيضاً يتكرر نموذج الخضوع والتمرد. إذ إن نماذج الأب هذه، مثل الرئيس في العمل وكبير الموظفين، اللذان يمثلان المبدأ السلطوي مثلما يفعل الوالد، إنما تثير في نفس غريغور دافع الخضوع وروح التمرد في آن.

كان لا بدّ له أن يقع من فوق مكتبه: كان مثل هذا النوع من الأماني مألوفاً لدى كافكا نفسه، وهو الخبير في العمل المكتبي. فقد كتب مرة إلى فيليس: **تراودني الرغبة في أن أقلب الطاولات، وأكسر زجاج الخزائن، وأشتم رئيس العمل؛ وإذ تنقصني القوة اللازمة لتنفيذ مثل هذه الرغبة التي هي وليدة ساعتها، فإنني لا أقدم على الاتيان بأي شيء من كل هذا.**

يتحدث إلى المستخدم: يرصد كافكا وضع المستخدمين رصداً دقيقاً، ويرسم

خوفهم الناشئ عن تبعيتهم. بل إن قصة **الانمساخ** تقدم أول عرض هام في الأدب الألماني الحديث لقدَر بائس لأحد المستخدمين.

دين الوالدين: لا يتحدث غريغور في أي موضع في القصة عن حب المهنة أو ميل إليها. إن انهيار المحل التجاري للوالد قبل خمسة أعوام أرغم الابن على كسب المال. وكما يتبيّن فيما بعد، يخفي الوالد مدخراته أمام غريغور، الأمر الذي يمكن تفسيره بأنه مكيدة اقتصادية قامت بها الأسرة التي تنتفع بشكل طفيلي من الابن الذي يكدّ في عمله. وبانمساخه يتحول غريغور من طرفه إلى متطفل.

يا رب!: إن استخدام تعابير مسيحية، وقيام الوالد والوالدة والأخت برسم إشارة الصليب بعد موت غريغور، يدل على أن أسرة سامسا هي أسرة مسيحية، كاثوليكية. والجدير بالذكر أن جميع آثار كافكا لا تحوي شخصية يهودية واحدة.

السابعة إلا ربعاً: إن تكرار تحديد الساعة الزمنية في مجرى القصة يعبّر عن تقدم الزمن بشكل لا يرحم وعن أهميته المصيرية.

رنين يهزّ الأثاث: إن صياغة كافكا وطريقة نظر غريغور سامسا تتسم بطريقة التعبير المبالغة هذه التي تكشف عن حساسية مرضية إزاء الضجيج والخوف من التذكير الصباحي بواجبات العمل. ومما يميّز غريغور ميله إلى نقل رد فعله الروحي إلى محيطه. (كان كافكا يتصف بحساسية عالية إزاء الضجيج).

صنيعة من صنائع الرئيس: يُبرز هنا ثانيةً مبدأ الطاعة المطلقة في العمل. إن خضوع الخادم لرئيس الشركة يقابله كون «غريغور حيواناً». ورغم الخوف الذي يسيطر على غريغور من رئيسه، فإن إرادة العصيان لديه أقوى، كما أنها ناجحة أيضاً من خلال واقعة الانمساخ.

الباب... خلف مقدّم سريره: تقرع الأم باب غرفة غريغور من المدخل أو الرواق. إن ظروف سكن أسرة سامسا هي صورة عن ظروف سكن أسرة كافكا في شارع نيكلاس رقم ٣٦ في براغ في أوائل القرن العشرين.

يا للصوت الرفيق: تشير هذه الكلمة إلى حنان الأم، في حين أن أول رد فعل للأب ـ قرعه للباب **بقبْضة يده** ـ إنما يوضح على الفور انعدام الودّ في العلاقة بين الأب والابن.

زقزقة مؤلمة: يدرك غريغور على الفور أن الانمساخ يشمل صوته أيضاً. وهذا يعني استحالة التواصل. لكن غريغور لا يصل إلى إدراك هذا الوضع إلا تدريجياً، إذ إنه، في أول الأمر، يعتبر **أن ذلك التغير الطارئ على صوته لم يكن غير نذير بزكام حاد**. كذلك لا يبدو أن أحداً من أفراد الأسرة ـ نتيجة البلبلة ـ لاحظ التغير الذي طرأ على صوت غريغور. إن كبير الموظفين هو الذي يدرك الحالة، إذ يقول: **كان هذا الصوت صوت حيوان**. وحتى بعد ذلك يظل غريغور في الأوهام، ويحاول أن **يجعل صوته واضحاً إلى أقصى حد مستطاع**، من أجل **المحادثات** القريبة مع الطبيب ومع صانع الأقفال. إن اعتذاراته المستفيضة تدع كبير الموظفين يلوذ بالفرار. وإذ يقع نظر الوالد على ابنه الممسوخ، يقوم بمحاولات نطق «حيوانية»، إذ يروح **يطلق أصوات فحيح كالمتوحش، كي يطرد غريغور إلى حجرته**. لقد تحولت **الدائرة الإنسانية** إلى «دائرة حيوان». إن مشكلية التواصل تخدم هنا عرض موقف الاستلاب، هذا الموقف الذي يثار في نهاية القصة من طرف الأسرة: إن الأخت توجه إلى هذا المخلوق **أول كلمة منذ انمساخه**، وهي نداء ترافقه إشارة تهديد مناسبة: **غريغور!** هذا المخلوق الذي يقول عنه الوالد فيما بعد: **لو كان في ميسوره أن يفهمنا**. وهكذا ينعزل غريغور عن العالم الخارجي بسبب عجزه عن التواصل. وهنا تتكرر مشكلية المؤلف. إذ إن كافكا، الذي لم يكن يلقى تفهماً من قبل أسرته ومحيطه، خلق لنفسه ـ من خلال كتابته ـ إمكانية التفاهم الحيوية بالنسبة إليه ومجال التواصل للمحدث المتخيَّل: القارئ.

أحد الأبواب الجانبية: إذا أضفنا الأخت **عند الباب الجانبي الآخر**، فإنه يتبيّن لنا أن غريغور محاط من قبل الأسرة، لكنه في الوقت نفسه مفصول عنها بالأبواب المغلقة. إن إقفال غريغور جميع أبواب غرفته في بيت أهله، هذه **الحيطة التي أخذها من الأسفار**، والتي يثني عليها هنا، يجب فهمه في الوقت نفسه على أنه رغبة لا شعورية بالعزلة.

وكأنه أُخلي سبيلها: يتكرر في آثار كافكا تحلل واستقلالية أعضاء من الجسم. وهذا يمثل شعور الفرد بضياع هويته الذاتية.

ابتسامة: أشير كثيراً ـ في النقد ـ إلى «الحشرة الباسمة» في هذا الموضع، الذي يُظهر ـ رغم كل مأساوية ـ روح سخرية.

كبير الموظفين: ممثل الشركة الإداري والقانوني، وهو ذو صلاحيات خاصة.

أن يحدث لكبير الموظفين ما حدث له: أمنية المغلوب على أمره، المتحكَّم فيه، الذي لا يستطيع أن يعوّض عن عجزه سوى بالتمنّي.

«لا»، قال غريغور: في حين أن غريغور نفسه ما زال يتوهم من طرفه أنه ينطق كلاماً مفهوماً، على المرء أن يفترض بالأحرى سماع صوت رفض ندّ عن حيوان.

قارن: **نعم أو لا، وهل فهمتما كلمة واحدة من هذا؟**

فإذا استبد بهم الروع: من شأن غريغور، الذي ما زال في شك من واقعية انمساخه، أن يحصل على تأكيد هذه الواقعية من خلال هلع الآخرين. ومن شأن هذا أن يعفيه من المسؤولية عن كينونته الجديدة؛ إنه يرى نفسه إذاً كـ «حالة من حالات الشؤون الاجتماعية». إن نقصان الوعي بالهوية، وتحكّم الآخرين بالمرء، يرتبطان مع بعضهما بعضاً.

الآلام في بطنه: مما يتفق مع الصورة العامة لوعي غريغور لجسده هو أنه لا يكترث بهذه الآلام. إن وعيه بالواجب والمسؤولية يدعه يهمل حاجات جسمه. وفقط عند دفاعه عن صورة السيدة يتمّ له تحقيق رغبة جسدية تحقيقاً مؤقتاً، وذلك مع بديل جنسي جليّ، الأمر الذي **أراح جوفه الحار.**

غرته! غرته... نعم، يا أمي: لا يخلو هذا المشهد من الهزل والحركة التمثيلية، رغم أن غريغور معزول، بشكل مأساوي ودون أن يدري، عن كل إمكانية تفاهم. إن التفاهم لم يعد يجري إلا من فوق رأسه.

الرواق: (في براغ آنذاك) ردهة مؤثثة بشكل مريح.

كيف استطاعت الأخت أن ترتدي ملابسها بهذه السرعة: مثل هذه الإضافات السردية تبيّن مستويات القَصّ المتنوعة: مستوى ما يعيشه غريغور بصورة مباشرة، ثم العرض الموجز لفترات زمنية طويلة (وخاصة في القسمين الثاني والثالث من القصة)، ومستويات الانعكاس المتنوعة في أفكار غريغور، هذه المستويات التي ترافق الحدث كتعليق عليه وتعكس، بالإضافة إلى ذلك، مقدمات القصة من وجهة نظره.

كما يفعل المرء في البيوت التي ألمّت بها كارثة كبيرة: هذا النوع من التأملات

والملاحظات هو جزء من القَصّ التقليدي الذي يجري فيه التوجه إلى القارئ بتعابير عامة ترمي إلى تبيان قاعدة تفاهم مشتركة، أو إيجاد هذه القاعدة. هنا يجري سحب مثل هذه الأقوال على غريغور، رغم أن وعيه في هذا الوقت وأفق إدراكه المباشر محدودان أكثر بكثير مما تفترض هذه التعابير العامة.

عاد لتشمله الدائرة الإنسانية: غريغور، الذي يشكو بمرارة من **الاتصالات الإنسانية التي لا تصبح ودّية قط**، يتوق أكثر ما يتوق إلى الاندماج في جماعة.

الطبيب وصانع الأقفال: يشير هذان المثلان لمهنتين إلى طريقتين مختلفتين في مساعدة غريغور أو معالجة أمره. فالأم تفكر بعلاجه من قبل الطبيب، في حين أن الأب يرى علاجاً آلياً للحالة، أي استخدام سلطة.

قد لا يبدو شبيهاً بالسعال البشري: يجري إظهار هوية غريغور وانتمائه إلى الكائنات البشرية، قبل كل شيء، في مجال اللغة والتعبير الصوتي.

الأم... الأب: إن ردود فعل الأم والأب على الظهور الأول لغريغور بعد انمساخه هي ردود فعل درامية. فبعد أن بدأ كبير الموظفين يلوذ بالفرار، ترى الأم غريغور، **وخرّت على الأرض... وقد خفضت وجهها إلى صدرها حتى حجب كلية**، في حين أن الأب يكوّر **قبضة يده، وقد طغت على وجهه سيماء ضارية**؛ وبهذا يمثل السلطة الأبوية، يخفف من جبروتها البكاء الذي يهزّ **صدره الضخم**. ومثلما هو الحال في **الحكم**، حيث الوالد **ما زال عملاقاً**، يمثل هنا أيضاً سلطة لها عواقب قاتلة بالنسبة للابن.

مصراع الباب المحكم الإيصاد: لم يقبل كافكا، بحال، أن يجري رسم غريغور على غلاف الكتاب؛ واقترح الانتظار أمام الباب المغلق، أو الباب المفتوح على حجرة الجلوس. وهكذا حدث في الطبعة الأولى للكتاب.

جزءاً: مما يميز وصف كافكا للمكان هو أن شخوص قصصه ورواياته لا تملك، دائماً، سوى زاوية نظر محدودة. والنافذة تمثل أيضاً العلاقة مع العالم الخارجي. إن العالم في الخارج يفقد بازدياد معالمه بالنسبة إلى غريغور. صحيح أن **جزءاً** من المستشفى **المواجه الرمادي القاتم... الطويل على نحو لا نهائي**، ما زال واضحاً؛ لكن هذا البناء **المنقّط بصفوف نوافذه المنتظمة** هو ذو وتيرة واحدة تناسب وضع

غريغور، الذي بدأ يفقد قدرته على تحديد الاتجاه. وفيما بعد يختلط كل شيء أمام ناظري غريغور، ويتحول إلى **أرض مقفرة اتحدت فيها السماء الرمادية والأرض الرمادية على نحو يمتنع معه تمييز إحداهما من الأخرى**. إن مثل هذه الصورة هي رمز للقنوط والشعور بانعدام وجود مخرج.

صورة لغريغور من فترة خدمته العسكرية تمثله ملازماً يضع يده على مقبض سيفه، وتعلو وجهه ابتسامة مطمئنة، ويستوجب الاحترام لوقفته وبزّته: كل صورة في آثار كافكا تشير إلى شيء ما. وصورة غريغور هذه هي نقيض صورة السيدة الملفعة بالفراء. وإذا كانت هذه الصورة رمزاً للإغواء الجنسي، فإن صورة غريغور هي تعبير عن غربته عن الذات، إذ إنه يمثل فيها دوراً مرسوماً له كلية. وطبقاً لذلك، فإن هذه الصورة «للابن الطيب» معلقة في غرفة جلوس الوالدين، في حين أن صورة سيدة الفراء معلقة في غرفته. إن الصورتين تمثلان درجتين من درجات تطور غريغور قبل انمساخه. والبزّة الرسمية، بصفتها إشارة تدل على السلطة، تنتقل في مجرى القصة إلى الوالد، الذي يعيد بها سلطته داخل الأسرة.

بوصفه صاحب الشركة: يقدم كافكا عدم الثقة إزاء المستخدمين كصفة أساسية من صفات رؤساء العمل. وهذا يعود إلى تجارب كافكا لا سيما في محل والده، حيث قام جميع العاملين فيه، ذات مرة، بترك العمل دفعة واحدة، وذلك احتجاجاً على تصرفات هرمان كافكا.

يلمس عن كثب النتائج السيئة: هنا يقترب غريغور أكثر ما يقترب من الإدراك أن انمساخه إنما هو، في الواقع، رد فعل جسدي على معاناته في العمل وفي البيت. إن الخلاص من خلال الانمساخ يعني خلاصاً من حياة تقوم على المنفعة.

انفرجت شفتاه، ولم يعد ينظر وراءه إلا من فوق كتفه التي راحت ترتجف: إن الخوف والرعب يضفيان ملامح حيوانية حتى على كبير الموظفين.

أحرق أخمص قدميه: في طريقة رؤية غريغور يجري دائماً تصوير النفسي من خلال الجسدي. هنا يعبّر عن الخوف من شيء فظيع بصورة ألم حارق.

استشعر، للمرة الأولى ذلك الصباح، حسّاً بالراحة الجسدية: تماهي غريغور مع شكله الجديد يزداد، لأنه وضع نصب عينيه هدفاً يبتغي تحقيقه؛ وهذا يعيد له حتى سيطرته الكاملة على جسده.

يطلق أصوات فحيح كالمتوحش: الآن أصبح الوالد، في مطاردته للحيوان، يتصرف بشكل حيواني أو على الأقل بشكل بدائي.

وفي كل لحظة كانت العصا بيد الوالد تهدده بضربة قاضية على ظهره أو على رأسه: إذا كان الوالد قد ظهر في قصة **الحكم** كهيئة تحاكم، فإنه في **الانمساخ** هو الهيئة التي تعاقب.

دفعه الوالد، من وراء، دفعةً قوية، كان فيها خلاصه حقاً: في هذه الإشارة العدوانية يرتسم حكم بالموت من قبل الوالد. وغريغور - مثله مثل جيورج بندمان في قصة **الحكم** - يطلب، بشكل لا واعٍ، هذا الحكم، ويستشعره خلاصاً.

٢

ولم يستيقظ غريغور، إلا مع الغسق، من نوم عميق كان أشبه بالاغماء منه بالرقاد: يتم الاستيقاظ الثاني لغريغور في دعة وسلام، والأحلام المزعجة أمست في خبر كان. في القسم الثاني من القصة يستمر الانمساخ، الذي يأخذ طريق نفي الجسد؛ الأمر الذي يظهر في موضوع التغذية، هذا الموضوع الذي يجمع الجوع للغذاء والتقزز منه في وحدة ديالكتيكية.

استشعر فخراً عظيماً: يقوم هذا الفخر على التصورات البورجوازية عن الحياة: الهدوء والرفاه والرضا.

نهاية فيها ذعر: لهذا التعبير المعروف معنى غير المعنى الذي يقصده غريغور. الأسرة تجد طريقاً لإنهاء الذعر في إرغام غريغور على التخلي عن نفسه.

لكن الحجرة الفارغة عالية السقف التي كان مرغماً عليه أن ينبطح فيها على الأرض أثارت الخوف في نفسه: إن الفضاء الذي يوجد فيه الآن غريغور هو فضاء يُفهم بشكل حرفي. إن تحوّل غرفته المألوفة إلى فراغ كبير لا يهّيء له إمكانيات جديدة للحركة وحسب، وإنما يثير الخوف في نفسه. والاهتداء إلى أسباب هذا الخوف يكلّف غريغور أكثر مما في وسعه.

يا إلهي، لا بد أن يكون في مكان ما، وليس في ميسوره أن يطير: المنظور هنا منظور الأخت. وهذا استثناء في القصة. ومن ناحية المضمون يعبّر عن رغبة الأخت اللاشعورية بأن تُحل المشكلة، التي يمثلها غريغور بالنسبة للأسرة، من تلقاء نفسها، وذلك بأن يختفي.

وكأنها تزور مريضاً اشتد به المرض، بل وكأنها تزور غريباً: إن كلمة (بل) تدع القارئ يتوقع استمرار الجملة: «وكأنها تزور ميتاً». وسلوك الأخت يعبّر عن رغبة تكبتها لكنها لا تستطيع إخفاءها. ومع الزمن يكتشف غريغور هذا التصرف.

الزبيب واللوز: كان كافكا يحب أكل الزبيب واللوز مع طعام العشاء.

قدراً أقل من رهافة الحس: إن عدم حساسية غريغور بالألم لا يفهم إلا إذا أردفنا المعنى الحرفي لتعبير «جرح أصبعه»، أي خاب أمله: كان غريغور قبل انمساخه قد أخطأ في تقدير وضعه الحقيقي في الحياة؛ وبعد الانمساخ تخلص من همومه السابقة.

انتهى إلى سمعه بعض الأشياء: إن موقف التصنت هذا بمشاركة الجسم بكامله كما يفعل الأطفال ـ **يضغط جسده كله** على الباب ـ يشير مرة أخرى إلى تصرفات غريغور الصبيانية.

أول نبأ سعيد: هذا تعبير عن انفصام غريغور. إن ظروف الأسرة المالية التي كان يجهلها هي نبأ سعيد بالنسبة له، لأنها تقلل من شعوره بالذنب، إذ إن موقف المعيل للأسرة يبدو غير ضروري.

انحباسه: تعبّر هذه الكلمة عن أحد نواحي الانمساخ الذي لم يجلب لغريغور حرية داخل عالم القسر. ولا نجد لدى غريغور رغبة قوية في العيش باستقلال خارج الأسرة. كما أنه لا يحقق استقلالاً مهنياً. لقد نشأ تحت تأثير تربية سلطوية، ويؤمن بسلطة الأسرة. ومما يعبّر عن هذا هو أن غريغور لم يستفهم من والده قط عن الحقائق الكاملة لإغلاق المحل التجاري.

وكانت تلك الأيام أياماً زاهرة: إن غريغور الذي يؤيد طموح أسرته بالصعود الاجتماعي، يمجّد الآن **نجاحاته** في العمل، لأن هذا يعطيه بين الآونة والأخرى

شعوراً بقيمة نفسه، فهو لم يوفق في إعالة الأسرة وحسب، وإنما أصبح، بالإضافة إلى ذلك، يسدد ديون والديه. ورغم ذلك يحسّ أنه لم يجنِ سوى الجحود. ويتوضح هذا في غياب الشعور **بالحنان والدفء**. ولا يبقى له من عزاء سوى علاقته الحميمة بأخته، رغم أن هذه العلاقة بين ذوي القُربى هي تعويض عن العلاقات الحقيقية مع النساء. وتحت ضغط مراقبة الذات مراقبة داخلية يجري تصعيد موضوع الجنس لدى غريغور وتحويله إلى تشجيع دراسة أخته للموسيقى. وهناك تعابير توضح الطبيعة الجنسية لأماني غريغور الوهمية، مثل **حلم جميل**، هذا **الذِكر البريء**، والظن أن **في نيّته أن يعضّها**، ورغبته أن يقبّل عنقها. إن الموسيقى والجنس يمثلان شيئاً مغرياً صعب المنال.

الاقتصاد والتبصّر: إن تصرف الوالد هو، شخصياً، إجراء وقائي مجدٍ ضمن سياقه البورجوازي؛ لكن هذه السلطة المركّزة في شخص هي، موضوعياً، حدّ من حق أفراد الأسرة الآخرين بالمشاركة في اتخاذ القرارات، هؤلاء الأفراد الذين يعاملون في الواقع بصفتهم قاصرين. وهذا نمط الأسرة القائم على نظام الأبوّة. ولأن غريغور في حياته الماضية نتاج هذه الظروف، فإنه يوافق على هذه البنى السلطوية، ويقبل في ما بعد بكل الأمور... **كما كان الوالد قد رتّبها.**

ما زالت طفلة بأعوامها السبعة عشر: إزاء الأخت التي تربطه بها رغبات غريزية حبيسة يظهر غريغور من طرفه بمظهر الأب العطوف؛ وذلك حسب ايديولوجية التملك الرجالية السائدة في طبقته الاجتماعية.

الضرورة لكسب المال: إن المال هو موضوع رئيسي في أحاديث الأسرة. والحياة في الطبقة البورجوازية تسيطر عليها المادة، في حين أن العواطف شبه معدومة.

حس الحرية الذي كان يستشعره سابقاً عندما كان ينظر من النافذة: في تصغير غريغور لشأنه باستمرار تفقد النافذة أيضاً المعنى الذي كانت تملكه سابقاً: بوابة إلى العالم ورمزاً لإمكانية التحرر من الأسرة.

ربما بعد شهر على انمساخ غريغور: هذا أول تحديد للوقت الذي مضى منذ انمساخ غريغور.

الشرود السعيد تقريباً: إن الشرود هو أحد تصورات كافكا الأساسية. وشخوص

قصصه وروایاته تصاب بشرود عندما تبلغ ضغوط العالم الخارجي عليها ذروتها، وتحاول الفرار منها. لذا فإن **الشرود**، الذي يلازمه هنا شيء من كون المرء محرَّراً منشرح الصدر، يمكن تسميته **الشرود السعيد تقريباً.**

يؤذي نفسه: إن مصير غريغور الحشري يحوّل جسده إلى شيء. وعندما يرد في ما بعد، **جرحت شظية زجاج وجه غريغور**، فهذا يبيّـن أن الوجه ما زال يُرى كجزء بشري قابل للجرح، وذلك على عكس الجسم الحشري الذي أصبح شيئياً إلى حد بعيد.

هذه الفتاة التي بلغت السادسة عشرة من عمرها: كانت خادمة أسرة كافكا أثناء كتابة **الانمساخ تبلغ السابعة عشرة، لكنها هادئة مثل ظل**، كما كتب كافكا إلى فيليس باور.

امتيازاً: هنا بمعنى: سماحاً.

عندما يعود إلينا: ما زالت الأم هنا لم تقطع الأمل بعودة غريغور، ويمكن القول بإعادة انمساخه (مثلما يحدث في الأساطير).

انعدام الحديث البشري المباشر انعداماً كاملاً: شكاوى غريغور العامة **(الاتصالات الإنسانية التي لا تصبح وديّة قط)** تُنقل هنا إلى الأسرة أيضاً. إن الأمر الأساسي لانمساخه المستمر هو انقطاع التواصل. غريغور يرى هنا فشل الأسرة.

كهف: المسكن البشري يتحول الآن إلى مسكن حيواني.

لم يكن، طبعاً، مجرد عناد طفليّ وثقة بالنفس اكتسبتها في المدة الأخيرة بصعوبة: ينطلق غريغور في علاقته مع الأخت من أفكار ومقولات الأسرة. فهو يتمنى أن تكون الأخت طفلاً مطيعاً يحقق في الوقت نفسه رغبات غريغور «الأبوية». وأي تصرف مخالف يشعر به غريغور **عناداً**. صحيح أن غريغور يحدس أن الأخت تصل، على طريق الرفض والمبادرة الشخصية، إلى الثقة بالنفس، لكنه يسحب فوراً طريقة تصرفها على نفسه. فهو يرى أن رغبتها في إخراج الأثاث كله من غرفته إنما تعود في الوقت نفسه إلى تفهمها لحاجته إلى الزحف. لكن الأخت

تلحّ هنا بحزم على إخراج الغول من دائرة الأسرة. ولا يصل غريغور إلى هذا الإدراك إلا في ما بعد.

لكن منضدة الكتابة يجب أن تبقى: في حين أنه كان في **ميسور غريغور، عند الاقتضاء، أن يستغني عن الخزانة**، بالرغم من أنه جاء في ما بعد **كانتا** (الأم والأخت) **تنتزعان منه كل ما كان أثيراً على قلبه... الخزانة التي يضع فيها منشار الخشب الرفيع وغيره من الأدوات**، فإنه يريد الاحتفاظ **بمنضدة الكتابة، التي كادت تغوص في أرض الغرفة**. ولدى هذا الإبراز يجوز لنا أن نرى في الخلفية علاقة كافكا بالكتابة.

الكتلة الضخمة السمراء: كما ترى من منظور الأم. وهذا تحوّل عن طريقة السرد أحادية المنظور.

لقد انطلق غريغور من عقاله: في هذه الصيغة يثبت غريغور كونه حيواناً سجيناً. وهو نفسه يستخدم مفهوم **انحباس**.

لا الوقت الكافي ولا الوسيلة: يشير هذا التعبير إلى ازدياد إدراك حقيقة استحالة التواصل.

جرس بدا غاضباً ومتهللاً في آن: إن شخوص الأب في آثار كافكا هي دائماً شخوص تتملكها فكرة الانتقام.

لكنه الآن كان يقف منتصباً: هنا يمكن للقارئ، بحق، أن يرى «تحوّل» الوالد (Verwandlung). فمن **الرجل الذي كان يستلقي في فراشه ويغرق فيه متعباً واهناً** يُبعث شخص جديد يثير الخوف. هذا الشخص هو في قصة **الحكم** الأب الذي يصدر حكماً بالموت، وهنا هو ساعي المصرف الصغير مرتبةً لكن العظيم مظهراً. ولا يمثل هذا «التحوّل» تقوية للذات المستقلة، وإنما يتمّ بقوة الصفات المؤسسية: **بزّة رسمية زرقاء مشدودة ذات أزرار ذهبية، قبّة سترته المرتفعة القاسية، قبعته، الحاملة حروفاً رمزية ذهبية**. كما أن هذا «التحول» يترك آثاراً واضحة على الوالد نفسه. **كانت عيناه السوداوان تسددان نظراتٍ قوية ثاقبةً من تحت حاجبيه الكثيفين؛ وكان شعره الأشيب، الذي اعتاد أن يكون مشعثاً، قد سرّح عند كل من جانبي الفَرق الدقيق اللامع**. إن كل علامات السلطة والقوة

الجسدية المستردّة تتجمع لتعطي انطباعاً عاماً: **مقطباً كالح الوجه.** إن الوالد لا يتصرف كذات مستقلة تعي قوتها، وإنما كأداة لسلطة تؤثر من خلاله. وهذا ما تشير إليه ملاحظة غريغور على تصرف الوالد: **أغلب الظن أنه هو نفسه ما كان يعلم ما الذي يعتزم أن يفعل.** إن الوالد لا ينفّس عن رغبات لا واعية ومشاعر انتقام وحسب، وإنما يتصرف بالأحرى بصفته ممثلاً لمبدأ عقاب. وكونه يعود بعد مدة قصيرة إلى الغرق في وضعه اليومي الناعس، يتوضح في بداية القسم الثالث من **الانمساخ**، حيث جاء عن الأم والأخت أنهما، لدى رؤية الوالد العجوز، **تتبادلان ابتسامة مرهقة.**

ولقد شُدِه غريغور من ضخامة نعلي حذائه: إن الانتباه إلى القدمين والحذاء يعود إلى منظور غريغور وإلى خوفه من الدعس والمعس. ورغم أن حجم جسم غريغور لا يستهان به، فهو كحيوان يصل بفمه إلى قفل الباب، فإنه على حق في هذا الخوف، وذلك لأن قسوة الوالد، ورغبته في الانتقام، وإرادته القوية في العقاب، واضحة إلى حد ما. ومن منظور الخوف يتضخم الحذاء المخيف. **سوف تسحقني حتى لا يبقى مني شيء** (كما جاء في رسالة إلى الوالد).

وهكذا جرى أمام الوالد، واقفاً كلما وقف، راكضاً من جديد كلما قام الوالد بحركة ما. وعلى هذا النحو طوّفا حول الغرفة مرات عديدة من غير أن يحدث أيما شيء حاسم، لا بل من غير أن يبدو الأمر كله، وكأنه مطاردة، وذلك نتيجة بطئه: قارن المقطع التالي من رسالة إلى الوالد: **ومما كان يثير الرعب أيضاً عندما كنت تدور صارخاً حول الطاولة لتمسك الطفل، دون أن تريد على ما يبدو أن تمسكه، لكنك تتظاهر بذلك، ثم تقوم الأم ظاهرياً بإنقاذه أخيراً. وهكذا كان يبدو للطفل أنه حافظ على حياته مرة أخرى بعفو منك.**

قطع من الأثاث بارعة النقش حافلة بالعُقَد والشقوق: كان كافكا يرى في مثل هذا الأثاث نموذجاً للإفراط في الفخامة والأبهة البورجوازية، ويفضّل الأثاث البسيط الذي يعطي انطباعاً هادئاً.

تفاحة... انغرست في ظهره حقاً؛ ورغب غريغور في جرّ نفسه إلى أمام... ولكنه استشعر وكأنه مسمّر إلى ذلك الموضع، وسطّح نفسه وقد ارتبكت حواسه ارتباكاً كاملاً: نجد مشهداً مماثلاً في يوميات كافكا بتاريخ ١٣/٥/

١٩١٣: أصيب الزوج في ظهره بشوكة طعنته وطرحته أرضاً. وراح الزوج ينوح رافعاً رأسه باسطاً ذراعيه.

لتعانقه في اتحاد كامل: إن الهزيمة في النزاع الأوديبي يُمنى بها من منظور غريغور كوصال جنسي.

٣

شكله البائس الكريه: من وجهة نظر الأسرة، في حين أن غريغور يرى نفسه **ذا منظر رهيب.**

الأم والأخت... الوالد يقول للوالدة: يصف كافكا هنا حياة الفئة البورجوازية الصغيرة بشكل أكثر إثارة للعزاء مما لقيه في أسرته الخاصة به. إن الهبوط الاجتماعي لأسرة غريغور يتوضح من خلال الأعمال التي يمارسها أفرادها من أجل كسب المال. وموضوع الصعود الاجتماعي يعبّر عنه في مفهوم **عمل أفضل.** ولدى الوالد يأخذ الحط من قدر الشخصية الإنسانية أشكالاً غريبة: الجو العائلي يُضحّى به في خدمة العمل. فالثوب المنزلي **يتدلى من المشجب في غير جدوى،** والرجل العجوز **يغفو في بزّته الكاملة وهو قاعد، فكأنه كان يريد أن يكون دائماً مستعداً للخدمة، وأنه ينتظر هنا أيضاً صوت رئيسه.** إن فن كافكا في المبالغة يكشف عن الواقع الاجتماعي والوعي المعطوب في عصره وعصرنا.

العناد: هنا وقبل ذلك **في ضرب من العناد** لا يشير هذا المفهوم إلى خاصية مميزة، وإنما إلى التأقلم الكامل للوالد وخضوعه المطلق إلى مهمته الوظيفية. إن الصفات التي يتصف بها، ليست هي التي تحدده.

إن قطعاً مختلفة من حُلَى الأسرة... قد بيعت: الحلى هي جزء لا يتجزأ من طريقة الحياة البورجوازية. ورهن الحلى أو بيعها هو دائماً دلالة على هبوط المنزلة الاجتماعية و«عار الأسرة».

إحدى منظفات الغرف في فندق من الفنادق الريفية... وأمينة صندوق في

محل لبيع القبعات: علاقات حب كانت خليقة بتقوية ثقة غريغور بنفسه وتشجيع استقلاليته، لكنها تؤدي إلى فشل لا بدّ منه بسبب روادع مفروضة عليه من قبل أسرته البورجوازية الصغيرة. هنا نلاحظ تشابهاً مع مشكلات فرانز كافكا (كانت خطيبة كافكا الثانية، يولي فوريتسك، ابنة اسكافي).

أزعجت غريغور: الإزعاج هو موضوع رئيسي في آثار كافكا، لكن من النادر تسميته باسمه. وقبل أسطر من هذا الموضع يجري الحديث عن **حساسية جديدة** على الأخت. وينبغي فهم مثل هذه الحساسية بصورة أكثر شمولية مما يوحي به هنا السياق المحدود. علماً أنه لا يجوز التفكير فقط بالناحية السلبية لما يسميه ماكس برود «الحساسية المرضية» لكافكا، وإنما بطاقة المشاعر التي تعاني الحياة اليومية غير المُرضية كحالة جسدية. ومن طرف آخر ينتج عن ذلك أن غريغور يُمنع من تحقيق رغبات بسيطة في الحياة وإشباع حاجاته الجسدية، كما تنشأ إزعاجات روحية تجعله متبرّماً، **جامداً**؛ وهذا يعني التمهيد للهلاك الروحي والبدني.

انفجرت باكية بكاء مريراً... وراحت... تضرب سطح الطاولة بقبضتيها الصغيرتين: بهذا المشهد يبدأ «ارتداد» الأخت عن غريغور، وتحولها إلى جانب الوالد.

إيذاناً بأن الربيع على الأبواب: يمتد زمن **الانمساخ** من أيام في تشرين الثاني حتى **الربيع** وآذار.

كأنه يريد أن يهاجمها: هذا أحد المواضع القليلة التي تتطرق إلى نوايا غريغور العدوانية اللاواعية دون رقابة ذاتية أو رقابة قصصية.

ثلاثة من المستأجرين: يُفهم المستأجرون الثلاثة، حسب مظهرهم وسلوكهم وتصوراتهم، كصور كاريكاتورية للمواطن البورجوازي الصغير وحرصه على السمعة الطيبة والنظام والنظافة. إن تماثلهم الآلي في الحركة والسلوك وردّ الفعل يدع القارئ يستنتج أنهم شخص واحد مضاعف ثلاث مرات. وهذا عنصر مسرحي يعطي انطباعاً مضحكاً ـ غريباً، وعبثياً تقريباً.

صفيحة الرماد: رماد مدفأة الفحم.

استبدّ به الحزن والإعياء حتى الموت: لقد وقع غريغور، ظاهرياً أيضاً، تحت

القاذورات والأشياء التي أصبحت زائدة عن اللزوم. هذا الانتماء إلى الفائض يختبره غريغور أولاً بتسلية متزايدة، لكنه يتبين عدم جدوى تجواله، فيزداد استعداده للموت.

الوالد والوالدة وغريغور: يجد هذا الثلاثي انعكاسه في المستأجرين الثلاثة وترتيبهم على المائدة.

الذي كان يبدو أنه صاحب الكلمة المسموعة لدى الآخرَين: هذه إشارة أخرى إلى أن هذا الثلاثي مترابط بالسيطرة والتبعية، ويمثل في الواقع وحدة.

هل كان حيواناً، والموسيقى تؤثر في نفسه مثل هذا التأثير؟: هذا السؤال هو حيلة محاميّة خاصة في تقنية السرد المحسوبة. هنا يُعرض على القارئ أن ينكر طبيعة غريغور الحشرية بأن يجري التلميح إلى عدم إمكان الجمع بين الطبيعة الحشرية والوعي البشري.

الغذاء المجهول الذي كان يشتهيه: غالباً ما فسرت هذه الجملة في سياق ما يقال - خطأً - عن نزوع كافكا نفسه إلى الزهد، وبالنظر إلى شخوص أخرى في قصص كافكا مثل شخصية فنان الجوع في القصة المشهورة التي تحمل هذا العنوان، كنزعة تصعيد، وتوجّه إلى الروحي. ولا شك أن هذه إمكانية تفسير. لكن من الجائز أيضاً اعتبار **غذاء** كشيفرة للتوق إلى الجنس... توق مراقَب من قبل الوعي، لذا فهو **مجهول** له نفسه. إن غريغور ليشعر بالإحباط في مجال الجنس. وفي هذا المشهد تظهر تخيلاته الوهمية بشكل واضح.

منظره الرهيب: هذه الرؤية لنفسه تنبع من إحساس غريغور المفرط بذاته، هذا الإحساس الذي يخفي قلقاً وراءه.

يفحّ في وجه المعتدين: المصاب أبداً بالإحباط يرى في المنافسين المحتملين **معتدين،** وذلك طبقاً لصورة العدو لديه. وللمناسبة، هذا الفحيح - الذي لا تستطيعه الحشرات - مثال آخر على الطبيعة المركبة التي تتصف بها **الحشرة** غريغور سامسا.

أتمّت تسوية الفرش: حتى في لحظة الذهول تقوم الأخت، تبعاً لسنن الآداب السائدة في طبقتها، بواجباتها المنزلية إزاء المستأجرين. وليس في مقدورها أن تعبّر عن خيبة أملها الشخصية من خلال إشارة تنمّ عن استياء أو رفض خدمة. وإذ تظن

الأسرة أنها ما زالت بحاجة إلى المستأجرين، فإنه ينبغي على الأخت أن تظهر طاعتها في هذا الاتجاه، في حين أن إحباطها وغضبها ينفجران بلا رحمة إزاء غريغور: إنها تطلب **التخلص من الغول**. وبدون تعليق قصصي يوضح كافكا، وهو يصف طرائق سلوك، بأية طريقة يقوم تدرّج الرتب والخضوع للقسر الاجتماعي بتدمير استقلالية الفرد وتحويل الإنساني فيه إلى وحشي.

الظروف الكريهة: فظاعة الظروف تطغى على القصة بشكل متزايد. القرف والاستياء يغلبان على ردود فعل الشخوص.

مطالب معللة بسهولة للغاية: يرى المستأجرون كل ما حدث على أنه نقض لعقد الإيجار. وهم يبغون التقاضي، ولا يخطر على بالهم حتى مجرد السؤال عما جرى.

حاولنا كل ما في وسعنا أن نُعنى به، وأن نصبر عليه أقصى ما يستطيع الإنسان أن يصبر: تتصاعد القصة لتصل إلى هذا السؤال: ما هو ـ داخل الظروف المعطاة ـ أقصى ما يستطيعه الفرد. وهو سؤال مثير للجدل يؤمن لهذه القصة قراء كثيرين في حيرة من أمرهم أو يبحثون عن أجوبة. هنا ثمة تشابه مع وضع كافكا في حياته الخاصة. وقد كتب صديقه برود: «في الثامن من تشرين الأول عام ١٩١٢ طلب والدا كافكا من ابنهما أن يكرس ساعات بعد الظهر للمعمل. ولأن اوتلا، التي كانت تقف دائماً إلى جانبه، وافقت هذه المرة على حجج الوالدين، واستنكرت طريقة حياة أخيها، فإن كافكا لم يعد يرى وجود إمكانية حياة، وعقد العزم بشكل حاسم على الانتحار».

تعجّب من المسافة التي تفصل ما بينه وبين غرفته: إن تغيّر المسافات تحت ضغط نزاعات نفسية يرد غالباً في آثار كافكا. وسوف نرى ذلك، مثلاً، في قصص **القرية التالية وطبيب ريفي وبلبلة يومية**.

بدا من غير الطبيعي أن يكون قادراً بعد فعلاً على التحرك: تحضيراً لموت غريغور يجري إبراز غريزة الموت لديه، وذلك بقلب حالة طبيعية (القدرة على التحرك) إلى شيء (غير طبيعي).

كان يفكر في أسرته بحنان وحبّ: إن موت بطل القصة المتصالح مع أسرته هو

ذروة من ذرى القصة. نزعة التمرد لديه تتراجع، وتتغلب نزعة الخضوع، فيخضع. وتعليق كافكا يبيّـن نوعية هذا «الحل». فقد كتب إلى فيليس: **ابكي، حبيبتي، ابكي، الآن وقت البكاء! إن بطل قصتي الصغيرة قد مات قبل قليل. وإذا كان الأمر يواسيك، فاعلمي أنه قد مات بدعة وسلام ومتراضياً مع الجميع**. بيد أنه لا يمكن الحديث عن تصالح بمعنى حقيقي، إذ إن غريغور لا يتصالح مع الأسرة إلا في داخل نفسه، مثل جيورج بندمان في قصة **الحكم**، الذي يهتدي إلى تأكيد المصالحة هذا: **أيها الوالدان العزيزان، لعمري قد أحببتكما دائماً**. إن التصالح هنا ما زال يعني بالنسبة إلى كافكا: الخضوع ومحو الذات.

أدركت حقيقة الأمر: إن الخادمة، التي تمثل بعامة زاوية نظر أكثر موضوعية، تدرك هنا أيضاً **حقيقة الأمر**. ولا يمكن الحديث عن موت مُصالح إلا من نظرة غريغور الداخلية. أما نحو الخارج، فإن الأمر يتضح على حقيقته: إنه نفْق حيوان جريح يموت جوعاً. وهكذا يضاف إلى زاوية السرد الأحادية زاوية سرد لأحد شخوص القصة الآخرين. لكن القاص لا يعترف لهذه الزاوية الجديدة بموضوعية مضمونة. وعلى القارئ أن يكتشف التناقضات ويسأل عن الظروف الحقيقية.

الزوجان سامسا: في هذا الموضع تظهر زاوية السرد المتبدلة؛ فقد تحول والدا غريغور إلى السيد والسيدة سامسا، والأخت لا تدعى من الآن فصاعداً سوى غرته. لكن لا يجوز لهذه التغييرات أن تخفي حقيقة أنه يُبقى، الآن أيضاً، على موقع المراقبة الذي كان غريغور يحتله.

الآن يمكننا أن نحمد الله: إن سلوك الأسرة: عدم تصديق الأم، حمد الأب لله ورسمه إشارة الصليب على صدره، وكلمات الترحّم من الأخت التي تندب بشكل غير مباشر على الأقل كون أخيها الممسوخ قد مات جوعاً؛ كل هذا يعطي انطباعاً أن الأسرة إنما تجتاز موت أحد أفرادها سابقاً دون أن تظهر حزناً حقيقياً. وكافكا يخفف هذا العرض غير المحمود للأسرة بأن يدع أفراد أسرة سامسا الثلاثة يخرجون من غرفة النوم **وقد قرح البكاء أعينهم بعض الشيء**.

«اتركوا منزلي في الحال!» قال السيد سامسا: صحيح أن المستأجرين أنفسهم كانوا قد أخطروا بترك الغرفة، لكن كافكا ينتهز الآن الفرصة لتقديم السيد سامسا كأب للأسرة قويت شوكته. وهذا يحدث مرة أخرى، عندما يقول السيد سامسا

بخصوص الخادمة التي صفقت الأبواب: **سوف تسرَّح مساء.** والدافع لهذا السلوك الاستبدادي واللامبالي هو انتصار الأب على ابنه.

الشيء: ذكر أحد معارف كافكا أن الشاعر قال له: «سامسا ليس كافكا بشكل كامل. والانمساخ ليست شهادة، رغم أنها ـ إلى حد ما ـ لا تكتم سرّاً». وإذا اعتبر غريغور سامسا كشخصية قصصية متأثرة بحياة الشاعر فرانز كافكا، فإنه من الجائز أن يبدو **الشيء** كنوع من تقييم الذات. لا بدّ أن كافكا كان ضمن أسرته يشعر في بعض الأحيان أنه **شيء** ضئيل القيمة. في رسالة إلى فيليس نجد تحقيراً للذات مماثلاً، لكن بخصوص كتابة كافكا: **لكن إذا لم أكتب، كنت أقع على الأرض، لا أستحق سوى أن أكنس.** إن جثة غريغور سامسا أيضاً تكنس بالمكنسة وتُبعد.

اتركا الأمور القديمة: مفهوم مواز لكلمة **الشيء.** هنا يجري تنحية الماضي البشري وكأنه كراكيب.

هرعتا إليه ولاطفتاه: إذا نظر إلى الوالد بصفته «غولاً بشرياً» على عكس «الوجود الحيواني» لابنه، فإننا نستبين الآن تفاهة سائر الخلجات الإنسانية داخل الأسرة. هنا يظهر الحب كخضوع مبتزّ لا تعيه الامرأتان المستلبتان.

أينع جمالها في الفترة الأخيرة وأصبحت فتاة وسيمة ناضرة: إن هارمونية دورة الطبيعة، هذه الهارمونية المتمثلة في بدء الربيع وإيناع الابنة، تخفي عنصراً يظهر في بحث الوالدين عن **الزوج الفاضل.** إن الحلقة المفرغة التي يقع غريغور ضحيتها، سوف تستمر. والقارئ لن يتخلص من عدم الثقة إزاء الأحلام الجديدة والنيات الطيبة لدى أسرة سامسا. إن المشهد الحَسَن في نهاية **الانمساخ** خدّاع. إذ إن ما يقدم نفسه في النهاية كتأكيد وتثبيت للأحلام، الجسد الفتيّ، هو بالذات ما يثبت في حياة غريغور أنه الجزء غير المأمون والذي لا يمكن التحكم فيه. إن الانمساخ ينتهي بوعد تكراره(*).

(*) هذه الشروحات هي فصل من كتاب بعنوان «فرانز كافكا ـ إيضاحات ووثائق»، وهو مخصص لتلاميذ المدارس الثانوية، ويقع في ١٧٦ صفحة (منذ نهاية خمسينات القرن العشرين أصبحت نصوص كافكا من مقررات الدراسة في المدارس الثانوية الألمانية).

٢ ـ الحيوان الغريب و«ذات» الإنسان

آ ـ الاستلاب الحديث و«قانونه»

إن(*) باكورة شعر كافكا **استعدادات زفاف في الريف**، التي كتبها في عام ١٩٠٦ / ١٩٠٧، تعكس أولاً عملية استلاب مجتمع العمل والمدينة الكبرى الحديث. البطل ادوار رابان (اسم فني لكافكا) يقف في شارع مدينة كبرى، وهو ينوي الذهاب إلى محطة القطارات. السماء تمطر. سيدة على الناحية الأخرى للشارع **نظرت إليه الآن. فعلت ذلك بلا مبالاة، وربما لم تنظر سوى إلى المطر المتساقط أمامه**. وفي الصيغة الثانية لهذا النص جاء عن هذه السيدة: **بدت لسائر العابرين غريبة دون قصد، وكأن ذلك بقانون.**

إن كافكا الشاب لم يكن يفهم، إذاً، تحت كلمة **قانون** شيئاً آخر سوى سلطة الأحداث الجماعية المجهولة، هذه السلطة البعيدة عن إرادة وقصد الفرد، والتي تقصي البشر عن بعضهم بعضاً. هذه السلطة تمثّل هنا من خلال **العمل**، من خلال الوجود في **المكتب**، الذي يفصل الإنسان إلى مجالين، مجال العمل والمجال

(*) هذه الدراسة هي فصل من كتاب للأستاذ الجامعي فيلهلم إمريش (١٩٠٨ ـ ١٩٩٨). قيل إن عالم الأدب هذا كان «قوة عظمى» في مجال الأدب الألماني، وإن محاضراته كانت «أسطورة». كان له مجالا اختصاص: غوته، والحداثة في مطلع القرن العشرين. وكان أهم كتابين له هما «رمزية فاوست II»، الذي حلّ فيه أكبر لغز في الأدب الألماني، وكتابه عن «كافكا»، الذي كان أول دراسة كبيرة بالألمانية انتزعت كافكا من مخالب التفسيرات الغيبية، وأنزلته من سماوات الأديان إلى أرض الواقع ووجود الإنسان على هذه الأرض، وفتحت الطريق بهذا لانتشار أدب كافكا.

الشخصي. وهذا ما يتبيّـن بوضوح من نسق أفكار رابان الذي يلي ذلك مباشرة: **وفكر: لو كان في مقدوري أن أحدثها بالأمر، فلن يكون من شأنها أن تعجب. إن المرء يعمل في المكتب بشكل مبالغ فيه، حتى إنه يصبح متعباً أكثر من اللازم، بحيث لا يستطيع أن يتمتع جيداً بعطلته. لكن المرء لا يحصل من خلال أي عمل على حق بأن يعامَل بحب من قبل الجميع؛ لا بل إن المرء يصبح وحيداً، غريباً كلياً، ومجرد موضع فضول. وطالما تقول المرء بدلاً من أنا، يكون الأمر لا شيء ويمكن للمرء أن يتلو هذه القصة، لكن حالما تعترف لنفسك أنك هو هذا الشخص، فإنك تُطعن حقاً وترتاع.**

هنا يظهر مفهوم «المرء» كما جاء عند هايديغر فيما بعد. كما نلمح هنا إشارة إلى **القانون** الذي ينقله كافكا فيما بعد إلى **مكاتب** سلطات المحكمة وسلطات القلعة في روايتي **المحاكمة والقلعة**. إن غربة هذه السلطات الرسمية إزاء **ك**.، الذي يريد الدفاع عنْ **ذاته** إزاء هذه السلطات، إنما تقوم على أن هذه السلطات إنما تخضع لقانون مجهول بالنسبة لها نفسها، يرغمها على التصرف بلا مبالاة إزاء الـ أنا والوجود الشخصي؛ لا بل على حماية نفسها أمام هذه الأنا، لأن هذه الأنا خليقة أن **تمزق حقاً** المنظمة الرسمية. إن السلطات تمارس قسراً لا مهرب منه، وذلك لأن كل شيء يجري تحت قوانين سارية جماعية غير فردية، حتى خلجات الحب التي تبدو شخصية وتخضع للقوانين البيولوجية والنفسية العامة، وحتى الأفكار الذهنية التي تقف أيضاً تحت شروط انعكاس نفسية ومنطقية عامة.

إذ يعي رابان هذا الانقسام بين المرء والأنا، ويتساءل عن **ذاته**، يشعر أنه مطعون حقاً ويرتاع. إذ علامَ يمكن لأناه أن تقوم، عندما يجب عليه أن يضحي بكل شيء في سبيل **العمل الوظيفي**، إذ إن كل شيء تابع لهذا العمل. وليس صحيحاً أن كافكا لم يصور سيادة الوجود الوظيفي هذه سوى في **المحاكمة** مثلاً أو في **القلعة**. ففي هذا النص الشعري الأولي يستشعر رابان كافة وقائع الحياة كقوى **غريبة** جماعية، مجهولة، يخافها، تجري بشكل آلي لا معنى له، وتظل بالنسبة له غريبة وغير مفهومة، ولا يستطيع أن يدخل إليها سوى بنفس كارهة أكبر ما تكون الكراهية. إن ذروة المهزلة المروّعة في هذا النص تكمن في أن هذه الكراهية إنما هي

موجهة بالذات **ضد استعدادات الزفاف** الخاصة به، ضد سفره إلى عروسه في الريف.

ب ـ «الحشرة» رابان

من هذا التوتر المتطرف بين **امرئ** يسود كل شيء **وأنا** لا قاع لها ترى نفسها مطعونة ينشأ الآن في رابان نسق أفكار يؤدي إلى بؤرة تحولات الحيوان الغريبة لدى كافكا:

وفوق هذا كله، أليس في مقدوري أن أفعل كما كنت أفعل أثناء طفولتي في الأمور الخطرة؟ إنني لا أحتاج أبداً إلى السفر بنفسي إلى الريف، فهذا غير ضروري. بل أرسل جسمي الذي ارتدى ملابسه. وإذا ما ترنح وهو يسير إلى باب غرفتي، فإن الترنح لا يدل على خوف، وإنما على انعدامه. كما أن الأمر ليس هيجاناً، عندما يتعثر في خطاه على الدَرَج، عندما يسافر إلى الريف وهو ينشج باكياً، ويتناول طعام العشاء هناك وهو ينتحب. إذ إنني أكون في هذه الأثناء مستلقياً في فراشي، مغطى بلحاف أملس بنيّ يميل إلى الصفار، معرضاً للهواء الذي يهب عبر الغرفة المفتوحة قليلاً. والعربات تسير والناس يمشون في الشارع بتردد على أرض عارية، إذ إنني ما زلت أحلم. والحوذية والمشاة متهيّبون، وكل خطوة يريدون أن يتقدموا بها إلى الأمام، يلتمسونها مني، بأن ينظروا إليّ. وأنا أشجعهم، فلا يجدون عائقاً.

مستلقياً في الفراش أتخذ شكل جُعَل أو خنفس ايار، كما أظن...... شكل كبير لجُعَل، نعم. ثم فعلت وكأنني في حالة الكُمُون الشتوي، وضغطت أرجلي على جسمي المقوّس. وألثغ عدداً قليلاً من كلمات هي تعليمات إلى جسمي المحزن، الذي يقف منحنياً إلى جانبي تماماً. قريباً أكون جاهزاً... ينحني وينصرف بشكل خاطف، وكل شيء سوف ينجزه على خير ما يرام، في حين أرقد.

إن **الذات** تكتسب، إذاً، تفوقاً على الجسم والبشر والجمادات، عندما تتخلى

عن وجودها البشري، وتتحول إلى حيوان. لكن هذا الشكل للوجود، الشكل الحيواني - قبل البشري، الذي كان يبدو له وهو طفل كإمكانية منقذِة فيما يتعلق **بالأمور الخطرة**، لا يكتسب مثل هذا التفوق إلا لأنه يوجد في حالة **حلم**، حالة كمون شتوي. إنه غائب عن سائر التأملات والجهود البشرية، **يرقد**، ويستطيع وهو في مثل هذا النوم الحلمي أن يقود الجسم والبشر، بل وحركة المرور في الشارع، بطريقة تسمح لهم بأن **لا يجدوا عائقاً**. إنها، إذاً، ليست قيادة منطقية، وإنما هو تنظيم حر لا واعي تختفي أمامه كل العوائق بنفسها. هنا يتم التوصل إلى الانعتاق من سيادة المرء المخطِط، سيادة **العمل الوظيفي**، **والأمور الخطرة**. وهناك مشهد مماثل في رواية **القلعة**: **ك. نام، ... كان يسمع كلمات بيرغل ... كلمة كلمة راحت تضرب على أذنه، غير أن الوعي المزعج كان قد اختفى، أحس أنه حر. ... وكان حاله كأنه بهذا إنما أحرز نصراً كبيراً ... سكرتير ... جرى التضييق عليه في الكفاح من قبل ك. ... وهو في النوم ... هل كان الأمر كفاحاً أصلاً؟ لم يكن ثمة عائق جدّيّ.**

وطبعاً ليس هذا سوى إمكانية تخيلية. وهي لا تؤدي في **القلعة** إلى النصر الحقيقي، وإنما إلى هزيمة **ك.**، الذي تفوت عليه، بهذا النوم بالذات، أكبر إمكانية يعرضها عليه أحد موظفي القلعة أثناء هذا الحلم. إن النصر الحقيقي لا يكمن في استبعاد الوعي، وإنما في توحيد الوجود الحر اللاواعي مع الوجود المنظِّم، المخطِّط الواعي.

لذا فإن هذه الإمكانية الحالمة لا تقدِّم في **استعدادات الزفاف** أيضاً سوى كتأمل عابر لرابان ثم تُترك مرة أخرى. فلا ريب أنه يجب على رابان أن يقوم بالسفر بشكل محدد. فهو لا يستطيع أن يترك ذاته في الفراش على شكل حلمي - حيواني ويبعث جسمه الفاني إلى الريف. إنه يظل إنساناً في التوتر الذي لا يمكن إلغاءه.

ومع ذلك كان هذا الشكل الحيواني للوجود يمثل دائماً بالنسبة لكافكا إمكانية أساسية للتعبير عن تناقضات الوجود البشري. إن الحيوان لا يعيش في وعي قادر

على تحديد الأمور ورؤيتها في شكل موضوعي، واقعي. إنه لا يزال يوجد في **شعور الحرية** العظيم نحو كل الجهات. لذا فإن الوجود الحيواني هو، بالنسبة لكافكا، ولا ريب حيّز إيجابي ما زال حاضراً في داخل الإنسان، وإن كان كذكرى عالم الشعور لدى الطفل ومرحلته الروحية. هذا الحيّز يظهر قبل كل شيء في **حلم** الإنسان، في تلك الحالة التي يغيب فيها الوعي المنطقي. لذا فإن النزاع بين الوجود الحيواني وعالم العمل يسود في كثير من قصص الحيوان لدى كافكا.

جـ ـ الحشرة في قصة «الانمساخ»

في قصة **الانمساخ** أيضاً يحدث التحول في الحلم. لكن كل شيء يجري بشكل معاكس تماماً لما جرى في رؤيا رابان. إذ إن غريغور سامسا لا يرغب أبداً أن يتحول إلى حيوان، وإنما يباغته هذا التحول بالأحرى كشيء غريب وغير مفهوم بشكل مخيف. إن أبعد ما يكون عنه هو أن يماهي أناه مع حشرة، كما فعل رابان. صحيح أنه، مثل رابان تماماً، يقف في نزاع معلق بين العمل والأنا، لكنه لا يعكس هذا النزاع في البدء بشكل حاسم كما يفعل رابان: إن سامسا يتأرجح بين المجالين. فمن طرف تسيطر عليه التأملات العقلانية المتعلقة بعمله، فهو يريد أن ينهض من فراشه ويقوم بسفرته: **قال غريغور في ذات نفسه: حذار من المكوث في الفراش من غير نفع.** ولكنه من طرف آخر يلعن عمله: **إزعاجات العمل، عناء السفر،** ويقول: **لمَ لا أستسلم للرقاد وأنسى هذا الهراء كله؟** هذا الهراء هو تحوله إلى حشرة، هذا التحول الذي لا يقبله داخلياً بأي حال من الأحوال ـ على عكس رابان ـ، وإنما يريد أن ينساه في النوم بالذات. إن سامسا لا يستطيع أن يرى تحوله إلا كظاهرة سلبية تعيق عمله اليومي. إن الحشرة تأخذ ملامح مرعبة، تصبح **حشرة ضخمة،** لا تعين، بل تعيق: **حين أفاق غريغور سامسا ذات صباح من أحلام مزعجة، وجد نفسه وقد تحول في فراشه إلى حشرة ضخمة... وفكر: «ما الذي أصابني؟» لم يكن ذلك حلماً.** إن سامسا يوجد إذاً، عكس رؤيا رابان، في حالة يقظة. والتحول الذي كان قد حدث أثناء الحلم ـ في **أحلام مزعجة** ـ يباغت

سامسا المستيقظ كحدث لا يدركه العقل، كحدث أصابه، لم يبتغه إذاً ولم يطلبه كما فعل رابان. إنه ينفض هذا التحول عنه واصفاً إياه بأنه هراء، ويفكر طويلاً ومفصّلاً بوظيفته المنهكة وبعلاقته برئيسه؛ ويتأمل فيما إذا كان في مقدوره الآن أن يلحق بقطار الساعة السابعة. ولا يخطر له أبداً أن تحوله قد يعيقه عن القيام برحلة عمله. هذا يقع في البدء خارج مجال تصوره. والتحول غير موجود بالنسبة له. إن سامسا يظل ملتصقاً في حيّز المرء. أما **الذات** فهي حشرة مزعجة، وليدة حلم، وليس في مقدورها أن تصبح حقيقة واقعة.

لكن بالذات في ردود فعل سامسا بعد استيقاظه مباشرة يتجلى معنى الأحلام المزعجة، وبهذا يتجلى أيضاً معنى التحول في الحلم: سامسا يندب وظيفته المنهكة، **وإزعاجات العمل، والخوف من عدم اللحاق بالقطارات، ووجبات الطعام الرديئة وغير المنتظمة، والاتصالات الإنسانية المتبدلة دائماً، غير المتواصلة أبداً، والتي لا تصبح ودّية قط. فليذهب الشيطان بذلك كله!** إنه يستشعر إذاً، مثل رابان تماماً، الاستلاب وفقدان العلاقات الودّية. لا بل إنه يفكر أنه كان يؤثر أن ينذر ويترك عمله منذ مدة طويلة. وقلقه على والديه، المدينين لرئيس شركته بمبلغ كبير من المال، هو وحده الذي حال حتى الآن بينه وبين أن يذهب إلى الرئيس ويقول له رأيه من صميم قلبه. **وكان لا بدّ له أن يقع من فوق مكتبه! حسناً. ما زال الأمل لم يفقد بعد كلية. فما أن أجمع المال كي أسدد له دين الوالدين - أظن أن هذا يستغرق خمس أو ست سنوات أخرى - حتى أقوم بذلك على أي حال. ثم تُعمل القطيعة الكبرى. أما الآن فإنه ينبغي عليّ أن أنهض، إذ إن قطاري ينطلق في الساعة الخامسة.**

ما من ثمة شك أن هذا النزاع بين وظيفته ورغبته في أن يعمل **القطيعة الكبرى** ويصبح مستقلاً أخيراً كان هو سبب **أحلامه المزعجة**. ولأن قسر الوظيفة هو الغالب في هذا النزاع، وتحقيق أمنيته بأن يصبح «ذاتاً» إنما يؤجل مدة خمس أو ست سنوات، **فلا بدّ** لهذه الأمنية أن تُستشعر، بالضرورة، كأمنية مزعجة تفسد عمله. إن الإمكانيات التي يقدمها **الحلم** لرابان ببقاء «الذات» في الفراش وتسيير

كل الأعمال في العالم باستقلالية وحرية، دون أن يُسحق في جلبة العمل، هذه الإمكانيات لا يجوز لسامسا أن يتبنّاها. لذا فإنه يصدّها عنه. لكن الصدّ لا يعني تخطّياً. والذات تظل موجودة. وليس في مقدور الإنسان أن يصبح **امرءاً** آخر كلياً. ومغزى هذا «الانمساخ» المرعب إنما يكمن في أن هذه الذات غير القابلة للإبعاد، هذه الحقيقية للأنا، التي تزود الآخر عنها، إنما تقتحم، بشكل يصدم، واقع سامسا اليومي الملموس؛ ولا تدع نفسها تُطرد بصفتها شبحاً أو أضغاث أحلام. إن ما يبدو لا واقعية خيالية لهذه الحشرة هو بالذات منتهى الواقعية التي لا يستطيع أحد أن يفلت منها.

إن جرأة هذا الشعر(*) لكافكا إنما تكمن في إخراجه النزاع من المستوى الباطني، النفسي الذي كان يعالَج عليه من قبل الشعراء منذ قرون. كان هذا النزاع، بين العمل اليومي ورسالة الإبداع، يقوم سابقاً في داخل الإنسان، وذلك على شكل أحاسيس ومطالب متنازعة. أما عند كافكا، فإن الباطن نفسه مستلَب، ونفس الإنسان غريبة عن ذاتها. صحيح أن سامسا يحس نزاعه ويعكسه مثل أي إنسان عادي، لكن كافكا يقوم في الوقت نفسه بإخراج هذه الأحاسيس والانعكاسات من علائقها، ويقوم بتأزيم النزاع وإيصاله إلى **التناقض** الحتمي بين **المرء والذات**، حيث لا يمكن الوصول إلى أي المجالين والتعبير عنهما من قبل الإحساس والانعكاس... الأمر الذي له أسبابه:

إن الأمر الجديد في رؤية كافكا للمشكلة وصياغته لها هو إدراكه أن **قانون** استلاب الإنسان العصري إنما يظل خافياً على هذا الإنسان نفسه. إن الإنسان يقع فريسة القانون المجهول، قانون «المرء» الآخر، إلى درجة لا يعود بعدها يعرف شيئاً عن ذاته الخاصة به، عن حياته الداخلية، ويروح يكبتها، ويغطيها نتيجة حسابات تقديرية: صحيح أن سامسا لا يشعر أبداً بالراحة في عمله اليومي، التجاري؛ وهو

(*) الشعر بالمعنى الأوروبي هو كل أدب رفيع، موزوناً كان أم منثوراً، روائياً قصصياً كان أم مسرحياً. والشاعر هو كاتب مثل هذا الأدب.

يحس النزاع ولا ريب، لكنه يعتقد أنه يستطيع تسويته بمجرد استخدامه حسابات تقديرية ذات طابع عملي، إنه يحسب: عندما يقتصد مبلغاً من المال كافياً لتسديد ديون والديه، فإنه يستطيع أن يحقق أخيراً **القطيعة الكبرى**، ويقفز من شركته. لكنه لا يملك أي تصور إلى أين سيقفز حقاً ولا عن أي شكل من أشكال الحياة يريد تحقيقه. إن دخيلة نفسه تظل غريبة عليه. ولذا فإن كافكا صاغها كشيء غريب على صاحبها، كحشرة، حشرة تهدد حياته العقلانية بطريقة غير معقولة.

هذا هو مغزى الحقيقة الغريبة أن كافكا يعرض، مراراً وتكراراً، دخيلة الإنسان، قرارة نفسه، على شكل جمادات أو حيوانات غريبة تقتحم الحياة بطريقة تثير الذعر، أو على شكل سلطات محكمة لا يقبلها العقل تطالب الإنسان بأن يقوم بمحاسبة نفسه بنفسه، لكنها في الوقت نفسه تضايقه في مزاولته لمهنته، لا بل تدمّر في النهاية حياته المهنية تدميراً كاملاً (**المحاكمة**).

لدى مقارنة المشهد الأول في **الانمساخ** مع المشهد الأول في **المحاكمة** ندرك التشابه المذهل بين المشهدين: في **المحاكمة** أيضاً تأتي «مباغتة» **يوزف ك.** من قبل سلطات المحكمة بعد الاستيقاظ في الفراش مباشرة، بعد أن غفل يوزف **ك.** في نومه العميق عن سماع الساعة المنبهة ـ مثل غريغور سامسا تماماً ـ وتجاوز ساعة الاستيقاظ. إن سلطات المحكمة هذه تنجذب إلى ذنب **ك.** المجهول بالنسبة له، وتعتقل **ك.**؛ تماماً مثل غريغور سامسا الذي تعتقله حشرته: إن غريغور يتحدث عن **انحباسه**. وكذا **يوزف ك.** يريد أن يتخلص من المحاكمة كلها بالتحاقه الفوري بعمله. **لقد أُخذت على غِرَّةٍ، هذا هو الحال. لو كنت قد نهضت... فور استيقاظي، ... لو تصرفت بحكمة... لما حدث شيء، ولاختنق كل ما أراد أن يصير شيئاً. لكن المرء غير مهيئ كثيراً. في المصرف مثلاً أكون مهيأ، ومن المحال أن يكون من شأن شيء كهذا أن يحدث لي هناك، حيث لديّ خادم خاص بي، والهاتف العام وهاتف المكتب أمامي على الطاولة وعلى الدوام يأتي أناس وفرقاء وموظفون، لكن بالإضافة إلى ذلك وقبل كل شيء فإنني هناك على الدوام في سياق العمل، ولذا فإنني أكون حاضر البديهة.**

على عمل المرء، هنا أيضاً، أن يغطي الذات الغريبة، هذه الذات التي تظهر على شكل سلطة محكمة **هائلة لا مثيل لها مثيرة للخوف**، تقتحم حياة **ك.**، كما تفعل الحشرة الضخمة التي يرى غريغور سامسا نفسه قد تحول إليها. إذ إن هذه المحكمة تعكس كامل العالم الداخلي ليوزف ك. ولكل الناس الآخرين. وإذ إن الذات ليست «داخلاً» خاصاً بها ومفهوماً، فإنه لا بد لها من اتخاذ شكل خارجٍ غريب، لكنه غريب يخرق قوانين العالم اليومي العملي. وهذه هي عاقبة عملية الاستلاب والتشييء الحديثة. وهذه العاقبة هي عاقبة واضحة كلياً ومشروعة فنياً. إن كافكا لا يصوغ ظواهر «سوريالية»، وإنما يصوغ حقيقتنا، وذلك بأقصى درجات الصدق الفني.

ثم لأن سامسا لا يقبل عالم الأحلام وكينونته الحيوانية غريزياً، الحرة لا شعورياً، المعفاة من قسر الحسابات؛ فإنه يتشوه ويتحول إلى **حشرة**، وذلك على عكس حشرة رابان، التي يشع منها انطباع الهدوء والحرية المتولد من تصورات طفولية أسطورية، حيث تظهر الحيوانات للطفل في **أعمال خطرة** كمخلوقات منقذة. وفي الحكايات الشعبية ثمة أطفال أو عشاق ينقذون أنفسهم من الجنيّات أو السحرة بالانمساخ مباشرة إلى حيوانات أو جمادات.

إن شخوص كافكا من الحيوانات تملك في شكلها الأصلي هذا المعنى الإيجابي المنقذ. وهي تمثل العالم الحلمي في العقل الباطن، حالة الإنسان قبل تفكيره، حالة أولية وما قبل حالة الإنسان، والتي كانت موجودة دائماً في قرارة روحه. ولكن إذ إن **الأعمال** العصرية أكثر خطورة بكثير، وإذ إن الإنسان يستسلم لها بنفسه، فإنه ينكر معينه ويعيق **خلاص** نفسه.

ليس الانمساخ هو أكثر ما يثير الرعب في مصير سامسا، وإنما هو عمى القلب والبصيرة الذي يستقبل به الجميع هذا الانمساخ. فسامسا ينكر انمساخه: **سوف أرتدي ملابسي في الحال، وأحزم عيّناتي، وأسافر**. والوالدان والأخت لا يفهمون هذا الانمساخ. إن الذات هي الغريب بشكل مطلق، المُلغى، غير الموجود في عالم الأعمال، وكذلك في عالم الأسرة. صحيح أن الأم والأخت تحبان

غريغور حباً عميقاً. بطريقة مؤثرة تحاولان أولاً تحسين وضعه، وتجاهل منظر الحشرة، والعناية به ورعايته، وتأمين ما يريحه، والحفاظ على ما كان إنسانياً لديه وجديراً بالحب بالنسبة لهنّ، أو بعث هذا الإنساني الخليق بالحب. لكن الحقيقة المرعبة لهذه القصة هي الإدراك أن «أجمل» العلاقات بين الناس وأكثرها رقة وحناناً إنما تقوم على الخداع. لا أحد يعرف ويحسّ ما يكون هو نفسه وما «يكون» الآخر. فالوالدان مثلاً لم يكن لديهما فكرة قط عن أزمة غريغور وعن **التضحية** التي قدمها لهما.. **إن الوالدين لم يفهما ذلك فهماً حسناً؛ كانا قد كوّنا لنفسيهما، على مرّ الأعوام، اقتناعاً بأن غريغور قد استقر إلى نهاية العمر في هذه الشركة.** لم يحسّا أن شيئاً ما يعتمل في نفس غريغور، شيئاً ليس على ما يرام، وذلك قبل مدة طويلة من ظهور هذا المرض الداخلي على شكل انمساخ. ولم يكونا يعلمان أن ضمان الرزق وحده لا يكفي، بل يمكنه أن يقوم بتغطية الجوهري في الإنسان، وتشويه هذا الجوهري وتدميره. وإذ يأخذ التشويه، الآن، ملامح ظاهرة، فإنهما يصبحان في حيرة من أمرهما، ويحسّان ابنهما جسماً غريباً.

لكن غريغور أيضاً كان قد انخدع بعلاقاته مع أسرته. **قال غريغور في ذات نفسه: أي حياة هادئة كانت الأسرة تحياها! وفيما هو، من غير حراك، يحدق إلى الظلام، استشعر فخراً عظيماً لكونه قد استطاع أن يكفل لأبويه ولأخته مثل هذه الحياة في مثل هذه الشقة الجميلة. ولكن كيف يكون الحال إذا قدّر لكل ذلك الهدوء، والرفاه، والرضا، أن ينتهي نهاية فيها ذعر؟** كان يعتقد أنه ينبغي عليه أن يؤمّن لأسرته حياة جميلة، مريحة، آمنة، بأن يضحي بنفسه ويبيعها إلى الشركة. إن العلاقات المتبادلة تقام على حسابات تقديرية ومصالحات لا يعود أحد يدري مداها. يقام نظام بالمظهر، وينشأ عالم **راض**. لكن في أحلام غريغور المزعجة ينقشع هذا المظهر، وتتبدّى الحقيقة على شكل **حشرة ضخمة**. كان غريغور قد شوّه نفسه من خلال تضحيته بنفسه. والآن تصبح الضحية مرئية وقد جرى تشويهها تشويهاً كبيراً لا رحمة فيه.

والخداع لا يتوقف: فالوالدان لم يكونا في الحقيقة بحاجة إلى الضحية. والوالد كان يملك من المال أكثر مما كان يعلم غريغور. كما أنه ما زال قادراً على العمل،

ولم يكن مريضاً أبداً كما كان الأمر يبدو. وكذلك غريغور كان قد خُدع. وتضحيته كانت بلا معنى. وكل سعادة الأسرة وكل ارتياح كان قائماً على الخداع وعلى حسابات مستترة. وكان عالم العمل قد اقتحم الحياة الخاصة. وكل شيء كان يقوم على أساس ما يملكه المرء، وليس على أساس ما يكونه. كل تحابّ الأسرة كان كذباً، ولم يكن حقيقةً قط. وكلما زاد المال الذي يمنحه غريغور لأسرته، ازدادت برودة العلاقة بينهم: **وقد اعتادوا ذلك، غريغور والأسرة. كان هو يعطي المال بسرور، وهم يقبلونه بعرفان، لكن شعوراً خاصاً بالحنان والدفء لم يشأ أن ينشأ بعد الآن.** والآن فقط، في تشوه غريغور، يصبح الحيوان المضحّى به مرئياً. ولكن لهذا السبب بالذات تتوجب مطاردته. على الحيوان أن يختفي. **يجب أن نحاول التخلص منه.** يجب **إبعاد ذلك الشيء الذي في الغرفة المجاورة.** إذ لا يمكن للعالم أن يستمر قائماً سوى بالكذب. وعلى غريغور أن يطلب ذلك بنفسه: **وكان يفكر في أسرته بحنان وحب. وكان رأيه بضرورة تواريه ربما أكثر جزماً من رأي أخته.** وحين **ينفق** غريغور، يستمر الكذب بلا رادع وبشكل مضاعف: إن **وظائف ثلاث** تلوح، وابنة جاهزة للزواج **مددت جسدها الفتيّ.** إن غريغور لم ينتبه **نهاية فيها ذعر** إلا لأنه أراد أن يرعى أسرته.

لكن انمساخه إلى حيوان ينطوي على معنى إيجابي أيضاً: حين يسمع غريغور - الحشرة عزف أخته على الكمان، ترد الجملة الحاسمة: **هل كان حيواناً، والموسيقى تؤثر في نفسه مثل هذا التأثير؟ وخيّل إليه أن الطريق كانت تنفتح أمامه إلى الغذاء المجهول الذي كان يشتهيه.** هنا فقط يتضح مغزى هذا الانمساخ إلى حيوان: إن الموضوع هو موضوع **الغذاء المجهول** الذي لا يوجد على الأرض. إن غريغور كحيوان هو في الوقت نفسه أكثر من حيوان أيضاً: كان لاستلابه مغزى، هو أن يوقظ فيه الحنين إلى هذا **الغذاء.** لقد كانت الموسيقى لدى كافكا على الدوام إمكانية لانتزاع الإنسان من سائر الحدود الأرضية. **في قصة أبحاث كلب** يتعلق الأمر بربط **عِلْمَي الموسيقى والغذاء** مع بعضهما بعضاً، وجذب الغذاء غير الأرضي من الأعلى إلى الأسفل بمساعدة الموسيقى، وتطوير **علم الغناء المنادي**

للغذاء إلى الأسفل. وعلى هذا العلم أن يصبّ في **آخر علم قدّر** الحرية عالياً أكثر من أي شيء آخر. إن الغرض الأخير من تحوّل غريغور هو الانطلاق نحو الحرية، نحو الحنين إلى **الغذاء المجهول.**

وبهذا فإن الحيوان في هذه القصة يعبّر عن مجال لا يمكن قط الافصاح عنه ولا حتى رؤيته. إذ لا أحد من المشاركين يرى الحيوان في الحقيقة. ورغم كل واقعية يتسم بها هذا الوصف للحيوان، فإنه لا يمكن فهم الحيوان ولا يمكن النظر إليه قط. إنه خارج عن نطاق كل إدراك إنساني، مثلما هي «الأشياء» لدى كافكا، مثل بكرة الخيوط أودرادك Odradek، وغيرها. ومن الخطأ تفسير الحشرة سامسا بأنها حشرة حقيقية. وكافكا نفسه عبّر عن ذلك بشكل واضح. فعندما أرادت دار النشر وضع صورة على غلاف كتاب «الانمساخ»، كتب كافكا إلى الناشر، بتاريخ ٢٥/١٠/١٩١٥: **خطر ببالي أنه** (رسام صورة الغلاف) **قد يرغب في رسم الحشرة نفسها. هذا لا، رجاء هذا لا! وأنا لا أريد الحدّ من دائرة سلطته، وإنما أريد أن أرجو انطلاقاً من معرفتي الأفضل بشكل طبيعي للقصة. إن الحشرة لا يمكن رسمها. كما أنه لا يمكن إظهارها حتى من بُعد.**

إن حلم غريغور المجسّم هو، في الوقت نفسه، أكثر من حلم. إنه السر الذي يتحدث عنه كل شيء، ورغم ذلك لا يمكن لأحد أن يتحدث عنه. لكن **في المَثَل** يُكشف النقاب عن مثل هذا السر. الحقيقة تظهر، **لو أصبحتم أنفسكم مَثَلاً.** إن تحوّل سامسا هو انتقال ذاته إلى **مَثَل.** هناك فقط تصبح هذه الذات **حقيقية،** وتقوض كذب العالم البشري.

ما هي الحشرة سامسا إذاً؟ من الجليّ أنها شيء يحسّه الجميع شيئاً غريباً، مرعباً، لا يحتمل. وهكذا يحسّه غريغور سامسا أيضاً. إذ إنه لا يتماهى في البداية مع الحشرة. ومع أنه يقع فريستها، لأنه يضطر، مرغماً، إلى قبول طريقة حياة حشرة، فإنه يظل في البداية مرتبطاً بأفكار وتصورات ومشاعر حياته السابقة، ويرى أنه من المؤلم كونه لم يعد قادراً على أن يُفهِم نفسه للآخرين. صحيح أن

تحوله إلى حشرة يقذفه خارج كل مألوف ويجعله غريباً ومرعباً بالنسبة للآخرين. لكن هذا لا يقلل من محبته لمحيطه. كما أن انكشاف الظروف المالية الحقيقية التي كانت تخفى عنه سابقاً لا يؤثر على هذه المحبة. إنه يريد العودة إلى حياته القديمة، لكن طغيان وجوده الحَشَري غير المفهوم يعيقه عن ذلك. لذا فإن الأخت التي كانت تحبه كثيراً وترعاه تقول أخيراً بحق: **يجب أن يذهب، هذا هو الحل الوحيد أيها الوالد. يجب عليك فقط أن تحاول التخلص من الفكرة القائلة إن هذا هو غريغور.**

لكن كما بيّـن حنينه إلى الموسيقى والغذاء المجهول، يتحرر غريغور أخيراً من ارتباطه في العالم التجريبي. إن موته ليس مجرد هلاك بلا معنى، وإنما هو إدراك منقذ. إن غريغور يقول نعم لموته نفسه. إنه يموت وقد تصالح مع نفسه ومع العالم: **كان يفكر في أسرته بحنان وحب. وكان رأيه بضرورة تواريه ربما أكثر جزماً من رأي أخته. وأقام على حاله تلك من التأمل الفارغ الآمن حتى أعلنت ساعة البرج الثالثة صباحاً. وعاش حتى رأى أول انتشار عام للنور خارج النافذة.**

وطبعاً لا يقال في أي موضع داخل القصة شيئاً من حيث محتوى هذا الإدراك؛ كما لا يجري التلميح في أي موضع عن ماهية **الغذاء المجهول**، وعما إذا كان المقصود غذاء فكرياً، أو روحياً، أو حتى مجرد غذاء فيزيائي. وإذا كنا حتى الآن ـ بعد صياغة رابان بأن «ذاته» تظل في الفراش كحشرة، في حين يبعث جسده إلى الريف ـ قد تحدثنا بأن «ذات» سامسا المستترة، الخفية حتى عليه، إنما تظهر في أحلامه المزعجة كحشرة، فلا بدّ من بعض الإيضاحات.

لم يعد بالإمكان فهم هذه «الذات» بسيكولوجياً كروح، كحالة روحية قابلة للتحديد يمكن أن تتجلى في مجال الأحاسيس والرغبات والآمال والأحلام والطموحات، بمعنى أنه في النزاع مع العمل الوظيفي إنما تتحرك، إزاء عالم العمل والأسرة، سلسلة من المشاعر «الداخلية» والمثل العليا والأهداف التي تمثل «الذات» الحقيقية لسامسا والتي كانت قد قُمعت حتى الآن. هذا الفهم غير وارد أبداً. ثم إنه، بالإضافة إلى ذلك، لن يمكن فهم كيف سيكون بإمكان مثل هذا العالم

الداخلي أن يتخذ شكل حشرة تثير الاشمئزاز. حتى لدى تفسيرنا الذي عرضناه والقائل بأن الموضوع ـ على عكس رؤيا رابان ـ إنما يتعلق بتشويه الذات، إذ إن هذه الذات تُقمع أو تُكافح من قبل سامسا، لذا فلا بدّ لها من أن تتخذ ملامح سلبية؛ فإن هذا التفسير البسيكولوجي غير ممكن. إذ في هذه الحالة، كان لا بدّ من وجود نزاع داخلي بين سامسا وذاته المقموعة. وكان لا بدّ لهذه الذات من إظهار مضامين تناشده وترغمه على اتخاذ موقف وتحوّله داخلياً، سواء كان هذا التحوّل إيجابياً أم سلبياً. لكن القصة تخلو من مثل هذه التغيرات والتحولات النفسية. إن الانمساخ لا يجري كتحوّل روحي أو فكري أو خلقي. وهذا هو المدهش والمعجز في هذه القصة والذي يميزها عن كل ما سبقها من شعر نفسي.

كذلك النظرية القائلة بأن الحشرة إنما تمثل المجال الفطري، الحلمي، اللاشعوري، الحيواني ـ ما قبل البشري في الإنسان، تحتاج إلى تفنيد. صحيح أن الحيوان يولد في الحلم. إذ **حين أفاق غريغور سامسا ذات صباح من أحلام مزعجة، وجد نفسه وقد تحول في فراشه إلى حشرة ضخمة.** لقد حدث التحول إذاً قبل الاستيقاظ وفي حالة النوم والحلم. صحيح أن الحلم، وهذا يعني الانعتاق من قسر الوعي اليومي، هو شرط التحول. لكن ما من شيء ينتقل من عالم الحلم إلى المتحوَّل. إن التصورات اليومية تظل مسيطرة على سامسا، وكينونة هذه الحشرية بعيدة عن كل ما ينتمي إلى الحلم.

كل هذه التفسيرات القريبة من الظن، المفهومة، هي تفسيرات خاطئة. إن الحشرة شيء غريب، وتظل شيئاً غريباً لا يدع نفسه يُدرَج في عالم التصورات البشري. وهذا وحده هو معناه. إنه الآخر بعامة، غير المفهوم، لا يفيد شعور ولا تصور في إدراكه. إنه **لا يمكن رسمه حتى من بُعد،** ليس بمعنى الفن التشكيلي وحسب، وإنما بمعنى أنه لا يفسّر إلا بصفته الشيء الذي لا يُفسَّر.

وفقط مثل هذا يتضمن حقيقة. إذ **ما يأتي من أرضية حقيقة، لا بدّ أن ينتهي في ما لا يدرى كنهه،** كما يقول كافكا في موضع آخر. إن الحقيقة والذات هما شيء واحد. و«الذات» هي ما لا يدرى كنهه. إنها تقع خارج جميع تصوراتنا عن

الذات. والحشرة تجسّد ما وراء تصورنا، الواعي واللاواعي. وهي الإلغاء المطلق لما يسمى العالم «الإنساني»، رغم أنها ليست سوى الإنسان «نفسه». إن الانقسام بين عالم حياة سامسا وشكل سامسا الحشري هو الانقسام بين «التصور» و«الكينونة». وإذ إن ما وراء التصور لدى كافكا إنما يكمن في الإنسان نفسه وليس خارجه، فإن «الصورة»، مَثَل هذا الماوراء، هي صورة أرضية بالضرورة وفي الوقت نفسه لا أرضية، **لا يمكن رسمها**. وتناقض هذا الوضع هو السبب في أن كافكا يصور مثل هذا الماوراء على شكل جمادات أو حيوانات تقتحم الحياة اليومية بطريقة لا تُدرَك، مثيرةً للحيرة والخوف أو مزيلةً لسائر الموانع. إن التحول من جُعل رابان إلى حشرة سامسا إنما هو قلب لزاوية الرؤية وحسب.

رابان رأى العالم انطلاقاً من ذات هادئة ساكنة وأرضية حقيقة. وكان لا بدّ للعالم أن يبدو له ممسوخاً، بغيضاً، لا يطاق؛ والدخول إليه يثير الفزع في نفسه. أما سامسا فإنه، على العكس من ذلك، يريد البقاء في العالم. لذا فإن الذات الهادئة لا بدّ أن تبدو له ولمحيطه كغول مخيف ينتزعه من دائرة حياته المحبوبة. يجب الاحتفاظ بكلا الموقفين. معاً وحسب يشكّلان حياة بشرية. وكافكا ينتقد ويقبل كلا الموقفين. وسيكون من الخطأ تفسير كافكا انطلاقاً من اعتزال رابان فقط أو من حرص سامسا على الأسرة والمهنة. كلا الموقفين يلتقيان في كافكا؛ كما يصور الاسمان، رابان وسامسا، اسمين فنيين له. وفقط تحليل رؤى كلتا الحشرتين يعطي المعنى الكامل(*).

١٩٥٧ / ١٩٦٤ فيلهلم إمريش

Wilhelm Emrich

(*) في كتاب فرانز كافكا: «الآثار الكاملة / مع تفسيراتها /١/ (الأسرة) / الحكم / الوقاد / الانمساخ / رسالة إلى الوالد» (٥٨٥ صفحة) ثمة سبع دراسات عن «الانمساخ».

آه، هذا الكافكا!

كم كتبنا عنه وكتبنا، وكم فسّرناه كل التفسيرات.

في حين أن الموضوع بسيط كل البساطة: هنا أحدهم يشعر دائماً بالخوف. خوف من الوالد، خوف من النساء، من الفئران، من المكتب، رجل يبلغ طوله متراً وثمانين سنتمتراً، وزنه تحت الستين كيلو غالباً، أي كتكوت صغير مسكين خائف، لكن مخيلة هروب هائلة في الرأس! هنا يريد أن يكون جُعلاً!حشرة قذرة مثل غريغور سامسا، حشرة قذرة مثل صديقه إسحق لوفي، الذي وصفه والده هرمان كافكا هكذا: حشرة. على المرء أن يكون جُعلاً، يبقى في الفراش ببساطة، وبين الفينة والأخرى زحف على الحيطان نحو الأعلى، و لا حاجة لجنس، من الأفضل تأمل السيدة في الفراء على الصورة والحلم بعض الأحلام ...

صباح اليوم، يوم ماطر مظلم، كنت راقدة في فراشي وكنت قد تحولت إلى جُعل. كنت أرقد على الظهر وأمدد الساقين اللتين تدعوان إلى الرثاء، كل شيء كان يؤلمني، كنت مصفّحة وحسب، ولم يكن لديّ رغبة في أن أنهض وأكون آلة تؤدي عملها بطريقة ما. غريغور سامسا، هذا هو زوجي، فكرت. جُعلي. لكننا نعلم فعلاً أية نهاية بائسة ينتهي الأمر عندما يكون المرء مجرد جُعل ولا يريد أن يؤدي عمله كآلة ـ في الختام يلقون المرء في المزبلة.

إذاً نهضتُ وكتبتُ هذا النص.

ينقص طولي عشرة سنتمترات عن طول كافكا، ومع ذلك أزن عشرة كيلو غراماً أكثر مما كان يزن. هنا يملك المرء قوة أكبر. فليس على المرء أن يكون جُعلاً. لكنني أستطيع أن أفهم غريغور سامسا كل الفهم. لا شيء في هذه القصة ينطوي على

أسرار. كل شيء فيها حقيقي، وكل يوم أرى حولي حشرات تتعفن.

ما زلت صامدة. حتى الآن(*)

إلكه هايدنرايش Elke Heidenreich

(كاتبة وناقدة)

(*) مجلة أدبية جديدة بعنوان «الكتاب كمجلة» يتألف كل عدد من أعدادها من قسمين، يضم القسم الأول نص كتاب كلاسيكي، والقسم الثاني يضم قصصاً من الحياة اليومية الراهنة ترتبط على نحو من الأنحاء بموضوع هذا الكتاب. ترمي المجلة إلى تشجيع قراءة الكتب الأدبية الكلاسيكية. الصفحة الأولى منها مخصصة بالكامل لشعارها، وهو جملة لكافكا: «على الكتاب أن يكون الفأس التي تكسر البحر المتجمد فينا».
صدر العدد الأول منها في كانون الثاني عام ٢٠١٣ بعنوان «الانمساخ» ويضم في قسمه الأول نص قصة كافكا، وفي قسمه الثاني قصصاً من الحياة اليومية في ألمانيا في الوقت الراهن، قصصاً تناسب موضوع «الانمساخ» وذلك جواباً على سؤال المجلة الذي كانت قد وجهته إلى عدد من الكتاب والنقاد، وهو: «ماذا يمكن للمرء أن يتعلم اليوم من قصة كافكا التي كتبت قبل مئة عام». الأسطر أعلاه هي أحد الأجوبة. وهي مرافعة ضد التعفن.
في آخر المجلة كتب رئيس تحريرها الملاحظة التالية: «في ختام عملنا لإصدار هذا العدد، إذ شرعنا في إجراء آخر التصحيحات المطبعية، لاحظنا ما يلي: بدأ كافكا في كتابة قصة الانمساخ في تشرين الثاني عام ١٩١٢ وانتهى من كتابتها في كانون الثاني عام ١٩١٣. في المدة الزمنية نفسها تماماً بعد مئة عام، من تشرين الثاني عام ٢٠١٢ إلى كانون الثاني عام ٢٠١٣، بدأنا في إنجاز هذا العدد الأول من مجلتنا وانتهينا منه. فيما لو كان هذا قد يعني شيئاً ما؟ لا أحد يعلم ذلك، كما هو الحال غالباً عندما يتعلق الموضوع بكافكا».

III . - إشارات وحديث

١ ـ المَسخ «العربي»

«هذه الترجمة قام بها منير البعلبكي، وأنا نقلتها عنه حرفياً». هكذا فكرت أنني سأكتب، عندما بدأت في ترجمة وإعداد كتاب «الانمساخ».

صوّرت كامل صفحات كتاب «المَسخ» (الصادر عن دار العلم للملايين ـ الطبعة الأولى ـ بيروت، تموز ١٩٥٧) بحجم أكبر من حجمها الأصلي، كي أجد فراغاً كافياً لكتابة أية تصحيحات. وكان تقديري أنني قد أجد بعض الأخطاء الطفيفة التي وقعت لسبب وحيد هو أن ترجمة البعلبكي كانت عن لغة وسيطة. وكان ظني أنني لن أكون بحاجة إلى نسخ الكتاب كله بخط يدي، وإنما سأكتفي بتصحيح ما أجده من الأخطاء القليلة على الصفحة المصوّرة ذاتها، وأدفع بنص الترجمة المصححة، هكذا، إلى المطبعة.

وشرعت في مقارنة ترجمة البعلبكي مع النص الألماني. وفوجئت مفاجأة أقل ما يقال فيها إنها غير سارّة:

ما من صفحة من صفحات البعلبكي تخلو من عدة أخطاء. في الصفحات الأولى كانت كل صفحة تحوي بضعة أخطاء، وكلما تقدم عدد الصفحات زاد عدد الأخطاء في كل صفحة. وفي منتصف القصة أصبح التصحيح يبلغ نصف النص. وفي ما بعد لم يعد بالإمكان كتابة التعديلات على الصفحة نفسها، وإنما أصبح من الضروري كتابة الصفحة من جديد. وهكذا اضطررت إلى كتابة النص بكامله بخط اليد.

وهنا أسمح لنفسي بذكر بعض الملاحظات حول بعض الأسباب الممكنة التي قد تكون وراء وجود هذه الأخطاء الكثيرة لدى مترجم كبير مثل منير البعلبكي:

١ ـ الترجمة عن لغة وسيطة: آ ـ كل كلمة تقريباً لها عدة استعمالات. وأحياناً نجد صفحة كاملة في القاموس عن مفردة واحدة بسيطة للغاية(*). والمترجم من اللغة الأولى (هنا الألمانية) إلى اللغة الثانية (هنا الانكليزية) قد ينتقي استخداماً خاطئاً، قليلاً، لمفردة من المفردات. وهذه المفردة في اللغة الثانية لها أيضاً عدة استعمالات. والمترجم من اللغة الثانية إلى اللغة الثالثة (هنا العربية) قد ينتقي استخداماً خاطئاً، قليلاً، لمفردة من مفردات اللغة الثانية. وبهذا تصبح مفردة اللغة الثالثة خاطئة قليلاً، لكن مرتين، أي بعيدة عن معنى المفردة في لغة الأصل الأولى.

والجملة تحوي «مطبّات» أكثر بكثير مما تحوي المفردة.

ورب تعبير لا يجد المترجم الأول مقابلاً صحيحاً له في لغته، فيترجمه بتصرف أو بشكل تقريبي. والمترجم الثاني قد يترجم هذا التعبير من اللغة الثانية ببعض التصرف أو بشكل تقريبي، رغم وجود ـ ربما ـ مقابل له في لغته (العربية) لو ترجم عن الأصل (الألماني).

والأكثر تعقيداً من المفردات والجمل والتعابير هو «روح» النص ككل ومدى فهم المترجم لهذا النص فهماً حقيقياً. وهذا الفهم هو الشرط الأول والأكبر لأي ترجمة.

ب ـ إن الخلاف بين أدوات التذكير والتأنيث في اللغات الأوروبية من طرف واللغة العربية من طرف آخر قد يؤدي إلى أخطاء كبيرة لا يمكن تفاديها إلا بالاستعانة بأشخاص يتكلمون لغة الأصل.

جـ ـ الأخطاء الناجمة عن استخدام الضمائر بشكل خاطئ هي أخطاء كثيرة: أبيه، أمه، والديه، والديّ، أخته. في حين أن كافكا لا يستخدم ضمير المتكلم مع كلمة «والد» مرة وحيدة في القصة بكاملها، ولا يذكر سوى **الوالد**. وعندما تكون الأم وابنتها، مثلاً في مشهد واحد، فإن كافكا لا يكتب «الأم وابنتها»، وإنما يكتب **الأم والأخت**. إذ «إن كافكا يروي القصة من وجهة نظر الشخص الرئيسي فيها».

٢ ـ كتب كافكا بلغة تسمى «ألمانية براغ»، وهذه اللغة أصبحت قديمة نسبياً، وهي

(*) عندما أعمل بضع ساعات في الترجمة، أفتح القواميس مئات المرات.

أقرب إلى اللغة التي يتحدث بها سكان النمسا أكثر من اللغة التي يتحدث بها سكان ألمانيا. وتحتوي على مفردات وتعابير عديدة لم تعد الآن تستعمل في الحياة اليومية. وهنا يصبح من الضروري جداً أن يستعين المترجم بأشخاص، وليس بقواميس فقط.

٣ ـ ترجمة نص لشاعر دون معرفة بقية آثار هذا الشاعر معرفة كافية لا بد وأن تؤدي إلى أخطاء. مثال: إن عنوان رواية كافكا الثالثة Das Schloss يمكن ترجمته بـ «القلعة» أو «القصر». والكلمة الثانية معروفة بالعربية أكثر من الأولى. لكن عندما يعلم المترجم أن كافكا استخدم، في مكان آخر، كلمة Die Burg في صدد روايته، فإنه ينبغي على المترجم أن يترجم عنوان الرواية بـ «القلعة»، إذ لا معنى ثان لهذه الكلمة.

٤ ـ إن الانشغال مدة طويلة بكاتب يرهف الحس لفهم استخداماته للمفردة، ويتيح العودة إلى مواضع أخرى في نصوصه، والتأكد من المعنى الحقيقي المقصود، واسترجاع الخلفيات. وأكثر من هذا، فإن هذا الانشغال يساعد في فهم روح الكاتب ونصّه ولغته.

٥ ـ الإقامة في البلد الناطق بلغة النص، والمعايشة اليومية لهذه اللغة، واستخدام مفرداتها كلاماً منطوقاً ومسموعاً، والاستعانة بأشخاص بالإضافة إلى القواميس. مثال: «غولدن» وحدة نقدية ترجمها البعلبكي بكلمة «مارك»، وترجمها آخر بكلمة «دولار». هل أتى البعلبكي على كلمة «مارك» لأن كافكا كتب بالألمانية؟ وهل أتى المترجم الثاني على كلمة «دولار» لأن قاموساً ما يفسر كلمة «غولدن» بـ «دولار كندي»؟ أما هنا فقد علمت من ألماني ولد في براغ عام ١٩٢٠، وهاجر منها بعد الحرب العالمية الثانية إلى ألمانيا، أن «غولدن» كانت الوحدة النقدية في براغ والإمبراطورية النمساوية لغاية عام ١٩١٨(*).

(*) جاء في الجملة الأولى من قصة **الحكم** أن جيورج بندمان **كان يجلس في حجرته في الطابق الأول**. أما في الترجمة العربية فقد جاء: **الطابق الثاني**. إن البناء في أوروبا يتألف من طابق أرضي ثم طابق أول الخ. أي أن الطابق الأول يعادل الطابق الثاني في بناء عربي.

٦ ـ قد يعطي المترجم لنفسه حرية، لا تكون من حقه، في إجراء بعض التعديلات، فيصحح للكاتب. وهذا لا يجوز. يجب احترام الكلمة، ليس بالمعنى العام وحسب، وإنما بمعنى المفردة الواحدة؛ بل واحترام النقطة والفاصلة.

٧ ـ والوقت الذي يمضيه مترجم في ترجمة كتاب ذو دلالة. (في مقابلة صحفية قال البعلبكي إنه ترجم نحو مئة كتاب).

٨ ـ وبعضهم يدّعي أن الدقة التامة ليست من صفات العرب التي تميّزهم عن غيرهم من الشعوب.

٩ ـ والبعلبكي يترك القارئ العربي أمام «حزورة»، فالمترجم لم يقدم بكلمة واحدة للكتاب أو الكاتب. وربما فعل خيراً! إذ إن الأسطر التسعة عشر التي كتبها على الغلاف الأخير تحوي عدة أخطاء كبيرة(*).

ومع كل ذلك، فإن ترجمة البعلبكي هذه هي أفضل ترجمة عربية لنص من نصوص كافكا. بل إن نص «المسخ» هو النص العربي الوحيد الذي يستحق الذكر والنقد من نصوص كافكا في اللغة العربية.

لكنني، في النهاية، أريد أن أقول إن ترجمة نص **الانمساخ** في هذا الكتاب هي، بالدرجة الأولى، ترجمة منير البعلبكي. وأنا نقلتها عنه حرفياً، وحافظت، خاصة على «روحها»؛ لكنني أجريت عليها بعض التصحيحات... التي تجاوز عددها المئات.

١٩٩٧ ا. و.

(*) وكذلك من كل ما كتب ويكتب بالعربية عن كافكا وأدبه لا يوجد كتاب أو حتى مقال وحيد يعطي انطباعاً صحيحاً عن هذا الشاعر أو عن نص من نصوصه.

٢ ـ أمسية مع سامسا

في عام ١٩١٤ تلى كافكا قصة **الانمساخ** لدى صديقه ماكس برود. وعن ذلك كتب في يومياته: **سهرة جميلة عند ماكس. قرأت قصتي بسرعة جنونية.**

وفي تموز ١٩٢٤، بعد وفاة كافكا بشهر، كتب ماكس برود: «من أتيح له أن يستمع إلى كافكا وهو يتلو من آثاره، في حلقة صغيرة، بحماس يأخذ بالنفس، وإيقاع لن يُبلغ مثل حيويته قط، كان يحس بشكل مباشر أيضاً رغبة الإبداع الحقيقية الجامحة والولع الذي كان يقف وراء هذه الآثار».

بتاريخ ١٩٩٥/١/٩ حضرت أمسية أدبية قام أثناءها ممثل مسرحي بقراءة قصة **الانمساخ**. وكان ذلك في مسرح بلدة بادغودسبرغ التي يبلغ عدد سكانها نحو سبعين ألف نسمة (إدارياً هي جزء من مدينة بون).

قبل أيام قليلة من هذه الأمسية كانت صحيفة محلية صغيرة توزع في البلدة وحدها قد نشرت في باب «الأمسيات الثقافية» إعلاناً صغيراً جداً مؤلفاً من الكلمات التالية: «الاثنين ٩ كانون الثاني، الساعة ٢٠، ردهة مسرح الجيب، روبرت غالينوفسكي يقرأ **الانمساخ** لفرانز كافكا».

في طريقي إلى المسرح تساءلت وفكرت: «كتبت قصة **الانمساخ** في زمان ومكان آخرين، في دولة أخرى، في مجتمع آخر، في عصر آخر، في عام ١٩١٢ في مدينة براغ التابعة لإمبراطورية النمسا والمجر. ما علاقة هذه القصة بالناس في بلدة بادغودسبرغ في ألمانيا في عام ١٩٩٥؟ من منهم قرأ هذه القصة؟ ولماذا قرأها؟ من يترك دفء منزله وشاشة التلفزيون ويتجشّم عناء السفر في ليلة شتاء ماطرة من أجل أن يسمع أحدهم يتلو هذه القصة على مسامعه؟ مجرد تلاوة وسماع فقط،

دون مقدمات، دون شروحات، دون نقاش؟ (معروف أن مثل هذه الأمسية تقتصر على التلاوة). هل أكون المستمع الوحيد؟»

وصلت باكراً قليلاً، فوجدت نحو عشرين شخصاً في القاعة. أخذت مكاناً في الصف الأول على آخر كرسي. وعندما دقت الساعة الثامنة كان عدد الحاضرين قد بلغ ما يقرب المئتين، نساء ورجالاً، أفراداً وأزواجاً. تتراوح أعمارهم بين العشرين والستين عاماً.

وعندما بلغت الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة دخل ممثل شاب يرتدي ملابس يومية بسيطة، إلى خشبة القاعة، حيث كان قد وُضع طاولة بسيطة عليها قنينة ماء وكأس ومصباح مكتب. نزع الممثل معطفه ووضعه على الكرسي، وتناول من جيبه نسخة من كتاب **الانمساخ**، ووضعها على الطاولة. توجه إلى الحضور وقال: «أنا روبرت غالينوفسكي سأقرأ عليكم قصة **الانمساخ** لكافكا». وجلس، وبدأ التلاوة.

كانت تلاوة الصفحة الأولى تلاوة عادية لا تنبئ عن شيء غير عادي. لكن سرعان ما أصبحت التلاوة عملية تمثيل لا تختلف عن تمثيل دور على خشبة المسرح. صحيح أن الممثل ظل جالساً طوال الوقت، لكنه استخدم وسائله الأخرى في التمثيل: حركات اليدين، تعابير الوجه، والصوت بشكل خاص.

وكنت قد زحزحت الكرسي الذي أجلس عليه بشكل أستطيع معه أن أدير رأسي إلى الوراء دون عناء ودون لفت انتباه كبير. ومرات عديدة رحت أتجول بناظري في وجوه المستمعين، فلم ألاحظ سوى استغراقهم في الاستماع وكأنهم يحضرون مسرحية حقيقية.

وعندما انتهى الممثل من تلاوة القصة بكاملها دون أن يتجاوز كلمة واحدة، قال: «هذا هو الحال»، ونهض واقفاً، فاندلع تصفيق حاد طويل كما يجري بعد انتهاء مسرحية ناجحة.

وكان الناس متأثرين غاية التأثر. نظرت إلى ساعتي فكانت قد بلغت التاسعة تماماً. أي أن قصة **الانمساخ** تُليَتْ بكاملها خلال خمس وخمسين دقيقة.

لا أظن أن أحداً من الحاضرين جاء إلى هذه الأمسية دون أن يكون قد قرأ القصة

سابقاً. لم يأت أحد إلا لأن القصة أثَّرت في نفسه ذات مرة، فحضر الآن كي يزداد إعجابه بها.

بعد أن تلقى الممثل تصفيق الجمهور بعدة انحناءات، تناول معطفه، ونزل عن الخشبة، وخرج. لحقت به أمام القاعة وهو يرتدي معطفه. قلت له: «شكراً. كانت تلاوة رائعة. لقد استمعت إليك لأنني أقوم حالياً بترجمة **الانمساخ**. سرّ وسأل: «إلى أي لغة؟» قلت: «إلى العربية». فظننت أنني لحظتُ في عينيه نظرة اندهاش. اتسعت حدقتا عينيه وقال: «الموضوع واحد في العالم كله».

١٩٩٥ ا. و.

٣ ـ رسالة قارىء

السيد المحتـرم،

لقد جعلتني تعيش القلب. ابتعت نسخة من قصتك **الانمساخ** وأهديتها إلى ابنة عمي(*). لكنها لا تعرف تفسيراً للقصة.

...

ابنة عمي أعطتها إلى أمها، وهذه أيضاً لا تعرف تفسيراً.

والأم أعطت الكتاب إلى ابنة عم لي أخرى، وهذه أيضاً لا تعرف تفسيراً.

فكتبن لي. وطلبن أن أفسر القصة لهنّ، لأنني دكتور العائلة. لكنني في حيرة من أمري.

أيها السيد!

لقد تعاركت مع الروس في الخنادق طوال أشهر دون أن يرمش لي جفن. لكنني لن أطيق صبراً إذا ذهبت سمعتي الحسنة لدى بنات عمي إلى الشيطان.

ما من أحد يستطيع مساعدتي غيرك. وينبغي عليك أن تساعدني؛ إذ إنك أنت الذي أقحمتني في الورطة. إذاً قل لي من فضلك ماذا يمكن لابنة عمي أن تفهم من **الانمساخ**.

شارلوتّنبورغ في ١٠/٤/١٧ — مع فائق الاحترام

المخلص د. سيغفريد فولف(**)

(*) كلمة Kusine الألمانية تعني: ابنة العم /العمة/ الخال/ الخالة (ا. و.).

(**) هذه الرسالة أرسلها قارئ مجهول إلى فرانز كافكا بتاريخ ١٠ نيسان ١٩١٧.

في العامين ١٩٣٦ و١٩٣٧ قامت طالبة فرنسية تعدّ أطروحة دكتوراه بتقصّي ←

كتاب عن «الانمساخ»

نشر الدارس المختص في أدب كافكا، بروفسور هارتموت بيندر نحو عشرين كتاباً عن كافكا وأدبه. في عام ٢٠٠٤ صدر كتاب له يمثل خلاصة أبحاثه عن كافكا التي استمرت طوال حياته العلمية: «الانمساخ / نشوء، تفسير، تأثير». وهو يقع في ستمائة صفحة من القطع الكبير (٢٨ X ١٧ سم)، أي ما يعادل ما يقرب من خمسة عشر ضعفاً من حجم القصة نفسها. ثمن النسخة الواحدة منه ٤٨ يورو، يزن كيلو غرام ونصف الكيلو، ويحوي ١٦٥٠ حاشية.

يتألف الكتاب من خمسة أقسام. في القسم الأول يحدد بيندر بدقة «الفرق

← بعض آثار كافكا في براغ، وقد حصلت من أقارب وأصدقاء كافكا على وثائق كثيرة، من بينها هذه الرسالة في صيغتها الأصلية، احتفظت بها حتى وفاتها في العام ١٩٩٢. وفي العام ١٩٩٤ ابتاع أرشيف الأدب الألماني في مارباخ هذه الوثائق.
وقد نشرت الرسالة المذكورة لأول مرة في كاتالوج معرض أقيم في العام ١٩٩٥ في جامعتي فوبرتال وبون تحت عنوان «فرانز كافكا: محطات حياته وكتابته». ثم نشرت في صحيفة يومية بتاريخ ١٩٩٥/١/١٨. (في حوزة المترجم صورة طبق الأصل عن الرسالة المكتوبة بخط اليد، وذلك كهدية من أرشيف مارباخ، وهي صورة مرقّمة تحمل رقم ٤٣).
هل أجاب كافكا على هذه الرسالة وفسر **الانمساخ** لهذا القارئ وقريباته؟ هل حلّ كافكا الألغاز كلها؟ على كل حال كان من المشوق للغاية معرفة كلمات كافكا التي كان من شأنه أن يصوغ بها استحالة التفسير.
إن اكتشافات مفاجئة تظل ممكنة إذاً. وهذا الأمل يخص أيضاً الجواب الذي قد يكون كافكا أعطاه لهذا القارئ المهتم.

الجمالي» بين الواقعي والمتخيل في هذه القصة، وذلك بناء على التقدم الكبير الذي حصل في الدراسات التي وضعت في العقود الأخيرة عن ظروف حياة كافكا. يقلّب بيندر هذه القصة جملة جملة، ويعثر في كل موضع من مواضعها على مقابل له في حياة كافكا اليومية، ويذكر اقتباساً مطابقاً له من رسائل ويوميات كافكا، وبهذا يقدم «القاعدة المادية» لهذه القصة، التي يُجمع كثير من الكتّاب وعلماء الأدب على أنها نص أساسي في الآداب العالمية.

في القسم الثاني يعرض بيندر رسالتين إلى كافكا من الكاتب روبرت موزيل، الذي كان مسؤولاً في دار النشر، توضحان بدقة وتفصيل كيف طُبعت القصة فعلاً وبعدة خطوات.

يمثل القسم الثالث مركز ثقل الدراسة، لأنه يجسّد طريقة السرد التي حاول كافكا أن يحققها في رواياته، ويسمح بدراسة جمالية كافكا ومبادئه في السرد من خلال نص مكتمل ومنشور من قبل الكاتب نفسه.

في القسم الرابع يعرض بيندر مضمون القصة بالتفصيل على أنها قصة أسرية. وهو بهذا يقتصر على تفسير يراعي ظروف حياة كافكا وقناعاته.

وفي القسم الخامس تاريخ تلقي القصة وتأثيرها على كتّاب آخرين. إنه كتاب مخصص للمختصين في أدب كافكا وللكتّاب والنقاد.

٤ ـ حديث عن كافكا

سمير البرقاوي: أن يتفرغ مترجم لترجمة أعمال كاتب ما والتعريف به من خلال ترجمة أعمال نقدية عنه، ويحوله لمشروع يعمل عليه لسنوات، فلا بد أن تكون هنالك علاقة روحية عميقة ومؤثرة نشأت بين المترجم والكاتب، من هنا هل لنا أن نعرف كيف نشأت هذه العلاقة الحميمة بينك وبين أعمال كافكا؟ وهل منحتك إقامتك في ألمانيا مزيداً من الفهم والتعمق لأعماله؟(*).

ابراهيم وطفي: حين قرأت لأول مرة «ما إن أفاق غريغور سامسا، ذات صباح، من أحلامه المزعجة، حتى وجد نفسه وقد تحوّل في فراشه إلى حشرة ضخمة»، شعرت على الفور وكأنني تلقيت على حين غرة ضربة على رأسي. قلت لنفسي في لاوعيي: «هذا هو الحال. لا، ليس هذا حلماً. إنهم ينظرون إليك في الواقع وكأنك حشرة». وتابعت القراءة وأنا في غاية الاندهاش والانبهار، لا سيما من عرض «الاتصالات الإنسانية... التي لا تصبح ودّية قط»، والعلاقات غير الإنسانية داخل الأسرة الواحدة.

كان حباً «من النظرة الأولى»، من السطور الأولى. كان ذلك في عام ١٩٥٧، وكانت قصة «المسخ» «للقاص الألماني العظيم» فرانز كافكا، ترجمة منير البعلبكي

(*) نشر ابراهيم وطفي ترجمة ثلاثة أجزاء من «الآثار الكاملة / مع تفسيراتها» لكافكا، تقع في ١٤٢٣ صفحة من القطع الكبير، تضم ستة آثار هي: الحكم، الوقاد، الانمساخ، رسالة إلى الوالد، المفقود، المحاكمة. منشورات وطفي، دمشق. التوزيع: دار الحصاد ودار الكلمة. انظر موقع www.kafkarabic.com

قد صدرت لتوها في «دار العلم للملايين» في بيروت كرقم ١٨ في سلسلة «كنوز القصص الإنساني العالمي».

في ما بعد قرأت عن هذه القصة: «لا يصوغ كافكا ظواهر سوريالية، وإنما يصوغ حقيقتنا، وذلك بأقصى درجات الصدق الفني... الحقيقة المرعبة لهذه القصة هي الإدراك أن أجمل العلاقات بين الناس وأكثرها رقة وحناناً إنما تقوم على الخداع».

رسائل كافكا، التي كنت قد قرأتها قبل عقود، أعدتُ قراءتها جميعها في عام ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧ (١٢١٢ صفحة من القطع الكبير)، أعدت قراءتها بروية ومتعة (متعة القراءة هي جوهر الأدب). أن تجد كل صباح على طاولة الفطور رسالةً كتبها كافكا قبل نحو قرن من الزمان، تقرؤها وتشعر بطزاجتها وكأنها وصلت لتوّها هذا الصباح... هذا شعور جميل. هذا ما كنت أشعر به طوال نحو عامين. كنت صباح كل يوم أثناء تناولي، وحدي، طعام الفطور أقرأ، بدلاً من جريدة، رسالة أو رسالتين من رسائل كافكا. بهذا اكتسبت عادة لم أتخلَّ عنها بعد ذلك الوقت: مع كل تناول طعام فطور أقرأ شيئاً ما عن كافكا. من كتاب أو، بين كتاب وآخر، أقرأ مقالات تأتيني كل يوم من محرك البحث غوغل وأنسخها على ورق (لا يمضي يوم إلا وينشر فيه بالألمانية عدة مقالات عن كافكا وآثاره). في الأشهر الأخيرة من عام ٢٠٠٨ كنت أقرأ كل يوم بضع صفحات من الجزء الثالث من سيرة حياة كافكا التي كتبها راينر شتاخ. هذه «الرواية» ضخمة الحجم (٧٣٠ صفحة من القطع الكبير)، الساحرة والأكثر تشويقاً من أية رواية أخرى قرأتها.

لم أعرف مثل هذا التماهي مع شخص آخر أو حالة أخرى. إني أشعر بقرابة روحية مع كافكا. قرابة في طريقة التفكير والإحساس بالأمور. إنه أقرب شخص إليّ ممن تعرفت عليهم طوال حياتي، شخصياً أم قرائياً. أشعر أن ثمة حالات وتصرفات أنقلها عنه: في حالات معينة تفضيل الكتابة إلى حبيبة على لقائها. رسائل عديدة مني إلى أهلي نشأت بالطريقة والأوضاع النفسية نفسها التي نشأت فيها «رسالة إلى الوالد».

ومع كل قارئ لكافكا أشعر بقرب، بغض النظر عن البعد المكاني.

بدأتُ ترجمة آثار كافكا في عام ١٩٨٨. ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن لم يمض يوم واحد تقريباً إلا وقرأت فيه شيئاً من كافكا أو عن كافكا، أو ترجمت منه أو عنه، أو عملت فيه شيئاً ما له علاقة به. أستثني من ذلك بضعة أيام من إقامة لي في غرفة العناية المشددة في مستشفى في عام ١٩٩٦. فعندما عدت أستطيع القراءة وأنا ما زلت في المستشفى طوال نحو ثلاثة أشهر، عدت إلى كافكا. وإذ رأى الأطباء أنني أصبحت على فراش الموت، قرأت كتاباً عن موت كافكا... فشعرت بعزاء، إذ كان وضعي في المستشفى أفضل بكثير جداً من وضع كافكا في المصحة التي توفي فيها. في ما مضى لم أكن قادراً على قراءة كتاب عن الموت. لكن عندما قيل لي إن موتي قريب جداً، تغلبت على خوفي، وقرأت عن موت كافكا. قرأت الكتاب عن موته وكأنني أقرأه من أجل الكتابة عنه أو استخدامه في ترجمتي القادمة، إذ علّمت، كما هي عادتي، على المواضع المهمة في الكتاب، وكتبت ملاحظاتي على هوامش صفحاته. وإذ لم أمت، فقد استخدمت هذا الكتاب فعلاً في ترجمتي القادمة. إنه كتاب «سنوات كافكا الأخيرة».

كما أن الحب صداقة، فإن الصداقة هي أيضاً حب. والهواية أيضاً هي حب. إنك تحب هوايتك. وكافكا جمع لديّ بين الصداقة والهواية. إنه صديقي وهوايتي في آن. بدون هذا الشعور ما كان بالإمكان بذل هذا الجهد طوال ربع قرن. (بتنويع عن أدونيس): إنني موجود، وحاضر في العالم، مترجماً لكافكا خاصة. فما سيكون معنى استمراري في الحياة، إذا انسلخت عمّا أوجدني ومنحني حضوري؟

المترجم يجب أن يقيم في بلد اللغة التي يترجم منها، مثله مثل سفير دولة يقيم في البلد المبعوث إليه. عليه أن يبقى على اتصال يومي باللغة التي يترجم منها، وأن يطلع باستمرار على الدراسات التي تنشر في مجال عمله؛ مثله مثل طبيب لا بدّ له من الاطلاع على المبتكرات الجديدة في اختصاصه.

البرقاوي: إن أحد أسباب بقاء أعمال كافكا طوال هذه السنين بعد وفاته هو

غموضها وقابليتها لتعدد التفسيرات. هل تعتقد أنه كان يتقصد ذلك عند الكتابة، بمعنى هل كان ينحى عامداً لعدم الوضوح؟

وطفي: الغموض والوضوح هو دائماً أمر نسبي. ما يخفى عليّ، قد يكون واضحاً بالنسبة لغيري. الأمر تابع لمدى القدرة الذهنية لكل قارئ ومراس ذائقته الأدبية. يضاف إلى ذلك من ناحية الكتاب المترجم، أن عدم فهمه فهماً صحيحاً إنما يعود إلى سببين آخرين: عدم ترجمته وعدم محاولة فهمه بالطريقة التي كتب بها. لكل كاتب طريقته في تلقي العالم والكتابة عنه. كافكا لم يتعمد غموضاً ولا وضوحاً. كتب حسبما أملت عليه طبيعته. كان يحس أنه يُكتب من خلاله. كان يرى الكتابة شكلاً من أشكال الصلاة. «هكذا فقط يمكن الكتابة. بهذا الانفتاح الكامل للجسد والروح». الكتابة بالنسبة لكافكا هي «مثل الحمل بالنسبة للمرأة». النص كتخيل ولادة.

أحس أن «المتاهة» و«الكابوسية» و«الغرائبية»، وما شابه من «التهم» العربية لكتابات كافكا، لا تزيد عن المتاهة والكابوسية والغرائبية التي تسود في واقع «العالم» العربي.

سبب خلود كتاب، أو أي أثر فني آخر، يعود في المقام الأول إلى أن هذا الكتاب إنما يعالج مشكلة ما زالت قائمة. عندما يزول الاستبداد من المجتمع العربي، لا يعود أحد يقرأ كتاب «طبائع الاستبداد» للكواكبي. كافكا يعرض المشكلات المركزية للإنسان في القرن العشرين. الإنسان بعامة، وليس إنسان مجموعة معينة. وهذه المشكلات ما زالت مستمرة في القرن الواحد والعشرين. في ستينات القرن الماضي كتب الفيلسوف أدورنو إن «نصوص كافكا الأمثولية تدعو للعمل منه مكتب استعلامات عن الوضع الأبدي أو الحالي للإنسان». طالما تظل علاقة أب ـ ابن / أب ـ ابنة علاقة هيمنة وخضوع، ستظل «رسالة إلى الوالد» جديرة بالقراءة من قبل كل أب وكل ابنة وكل ابن، في كل زمان ومكان.

عن قصة «الانمساخ» كتب كافكا في ليلة ٥ ـ ١٩١٢/١٢/٦: «ابكي، حبيبتي، ابكي، الآن وقت البكاء! إن بطل قصتي الصغيرة قد مات قبل قليل». غريغور سامسا لم يمت، بل ما زال حياً في أسر كثيرة في كافة أنحاء العالم.

«لا بدّ أن أحداً قد افترى على يوزف ك.، إذ اعتقل ذات صباح دون أن يكون من شأنه قد فعل شراً». يوزف ك. أيضاً سوف يظل أمثولة على كل يوسف عربي من الأجيال القادمة يجري اعتقاله وتعذيبه دون ذنب اقترفه سوى المطالبة بكرامته.

كل قارئ يفهم تبعاً لطبيعته وثقافته وذائقته. والأثر الفني قابل للفهم من عدة وجوه. من يفهم، مثلاً، غريغور سامسا شخصية من طائفة معينة، يذكّرنا بأن حشرة كافكا قد «تطورت» لدينا بعد مئة عام من ابتداعها إلى فئران وجراثيم. وهذا يثبت، للأسف، صلاحية وصدق مخيلة كافكا. كان هذا المبدع ذو الإحساس فائق الرهافة يحس أن أهله ينظرون إليه كما لو كان حشرة، وذلك لأنه يمضي أوقات فراغه في خربشات، بدلاً من أن يعمل على جمع المال. أما الآن فلسنا حشرات بالنسبة للوالدين والأخوات والأخوة وأبنائهم والجيران ومن شابه وحسب، بل بتنا فئران وجراثيم بالنسبة لمختار الحارة بذاته، وذلك لأننا لا نريد أن نكون نعاجاً في قطيعه. لكن «لكي يتمكن المرء من أن يكون عضواً مثالياً في قطيع غنم، فإن عليه أن يكون على الأقل نعجة» (ألبرت أينشتاين). بعد ميلاد غريغور سامسا، في نوفمبر عام ١٩١٢، بمئة عام بالتمام والكمال، لو بعث كافكا لدينا، كان سيشعر بفقر مخيلته قياساً إلى الواقع العربي الراهن، هذا الواقع الذي تجاوز مخيلة كافكا بدرجات.

البرقاوي: هنا، تحيلنا إجابتك إلى سؤال آخر، وهو إلى أي حد كان تأثير كافكا على الأدب العربي؟

وطفي: عالمياً ثمة إجماع لدى المختصين على أن كافكا هو الكاتب الأكثر تأثيراً في الآداب العالمية. في عام ٢٠٠٢ أجري في النرويج استطلاع دولي لأهم مئة كتاب أدبي في التاريخ، التي تصلح لكل الأزمنة وتساعد في تشكيل الوعي الإنساني. وشارك في هذا الاستطلاع كتّاب عالميون، وأعلنت نتائجه في معهد نوبل. وكان كافكا هو الكاتب الوحيد الذي اختيرت جميع كتبه من بين هذه المئة كتاب. جميع الكتّاب الكبار الذين خلفوا كافكا قرؤوا كافكا. وكثيرون منهم

كتبوا عنه. مارتن فالزر، الكاتب الأهم في اللغة الألمانية في الخمسين عاماً الأخيرة، يقول إن مصيره الأدبي قد تقرر بقراءته آثار كافكا، لا سيما القصص، وخاصة قصة «الانمساخ». والدور نفسه أخذته هذه القصة في المصير الأدبي لغارسيا ماركيز. الشاعر الإنكليزي ويستان أودين قال إن كافكا «هو الأقرب إلينا بمعنى علاقة دانتي، شكسبير، غوته بعصورهم». ساراماغو الحائز على جائزة نوبل قال إن كافكا هو كاتبه الخاص. «إنه واحد من أعظم الكتّاب في تاريخ الأدب». نابوكوف قال: «إن كافكا هو أهم كاتب في اللغة الألمانية». جون أبدايك قال إن كافكا هو «الممثل الأنبل للمصير الإنساني في العالم الحديث».

لم يقتصر تأثير كافكا على الكتّاب، بل شمل هذا التأثير مبدعين كثيرين في مجالات عديدة، فقد قام مبدعون كثيرون في المسرح والسينما والتلفزيون والإذاعة والموسيقى والرسم بتبنّي أجزاء من آثاره وعرضها عن طريق هذه الفنون.

عربياً: الإجابة لدى العاملين العرب في مجال الأدب المقارن. مع ملاحظة أنه حتى يمكن تمثّل تجربة فنية لمبدع عظيم، ويقوم هذا المبدع بالتأثير تأثيراً نابعاً من الجوهر وليس من المظهر وحده، فإنه ينبغي قبل ذلك ترجمة آثار هذا المبدع وقراءتها وفهمها على نحو صحيح.

البرقاوي: من خلال مذكراته ورسائله، هل كان هنالك ما يشير إلى أن كافكا كان يدرك حجم عبقريته؟

وطفي: كان كافكا يدرك أهمية كتاباته، بيد أنه لم يكن يُظهر ذلك بسبب تواضعه الجمّ. من طرف آخر كان يشعر بضآلة شأن في ما يتعلق بشخصه وبأنه فشل، وذلك لأنه نتيجة لظروفه في الحياة اليومية ومرضه لم يتمكن من تكملة معظم آثاره. يبدو في هذا شيء من التناقض، غير أن شرحه يحتاج إلى صفحات طويلة.

البرقاوي: عندما قرأت ترجمتك لكافكا (مع أني لا أستطيع قراءة كافكا بلغته الأصلية) كنت أشعر أنك قدمته للقارئ العربي بنفس الطريقة التي كتب بها

أعماله بلغته الأصلية. كان إبداعاً أن تترجم كافكا هكذا... هل كان لديك خطة ما عندما أقبلت على مشروع ترجمة كافكا؟

وطفي: ملاحظتك جديدة ومهمة. أرى أنه ينبغي ترجمة كل كاتب بالطريقة التي كتب بها في لغته الأصلية. يجب محاولة نقل أسلوبه، شخصيته وروحه كما هي، وليس كما «يناسبنا». أسلوب الكاتب ونبرته ونغمته وروحه نابعة من شخصيته وطبيعته وثقافته وظروفه ومجتمعه. و«تعريب» هذا الكاتب هو تشويه لكل ذلك وعرقلة فهمه. وهذا ما جرى لكتّاب كثيرين ولأمور كثيرة. خذ مثال الاشتراكية: بقدرة قادر تحولت إلى «الاشتراكية العربية». وما حلّ بهذه «الاشتراكية» من تشويه، بحيث باتت تعميماً للفقر في كل مجال، هو ما سيحلّ بكل كتاب يجري تعريبه لكي يناسب «هويتنا» و«عاداتنا» والمألوف في الكتابة العربية واللغة العربية وطريقة الحياة العربية والمحرّمات العربية. القارئ بحاجة إلى كل جديد من خارج لغته وطريقة حياته. القارئ الأجنبي لا يبحث عن أسلوب لغته في عصره عندما يقرأ ترجمة لقصيدة من الشعر الجاهلي، بل يطلب أن يتعرف على روح الشاعر الجاهلي وروح محيطه. وعندما يقرأ رواية لنجيب محفوظ، يغرق في جو الحياة الشعبية في أزقة القاهرة في منتصف القرن العشرين. وعندما يقرأ قصص زكريا تامر، يبحث فيها عن جو القمع في المجتمع العربي. القارئ الأجنبي يبحث عن الجديد عليه والمختلف عن ثقافته. يبغي أن يوسّع أفقه ويفهم ما يمكن فهمه من العالم الواسع، ولهذا السبب يقرأ ترجمات.

الكاتب الذي لا يقرأ بلغة أجنبية يفوت عليه الكثير. القراءة بلغة واحدة ومعرفة طريقة حياة واحدة لا غير تنمّ عن ضيق أفق ضمن هذا العالم الشاسع المتنوع.

البرقاوي: هل واجهتك مشاكل مهنية في ترجمة أعمال كافكا خاصة لم تواجهها في أعمال كتاب آخرين؟

وطفي: أقرأ وأترجم كي أتمتع وأفهم وأتعلم. أتمتع بكل جملة أقرأها من أجل ترجمتها، وأتمتع بترجمة كل كلمة. مثال: عملت طوال نصف يوم في ترجمة كلمة «المحاكمة»، عنوان الرواية الشهيرة. وعملت طوال نصف يوم في ترجمة

الجملة الأولى من الرواية: «لا بدّ أن أحداً قد افترى على يوزف ك.، إذ اعتقل ذات صباح دون أن يكون من شأنه قد فعل شراً». وعملت طوال نصف يوم ثالث في الجملة الأخيرة: «مثل كلب!» قال. كان الأمر وكأنما الخجل يبقى بعده».

ترجمة كلمة واحدة وجملتين من كافكا احتاجت مني إلى عمل يوم كامل ونصف اليوم (يوم العمل عندي يتألف من ثمان ساعات على الأقل). هذا لا يعني مشكلة أو صعوبة. المشكلة أو الصعوبة هي دائماً أمر نسبي. لي جار شاب رياضي هوايته جري ٢٠ كم كل يوم. وهذا لا يعني أنه يتعب أو يلقى صعوبة أو يشكو.

البرقاوي: أثير لغط كثير حول صهيونية كافكا. هل كان هنالك سند لها، أم أن الأمر مجرد تلفيق من صاحبه ماكس برود؟

وطفي: بصفتي قارئاً عادياً أقرأ النص الأدبي نصاً أدبياً بغض النظر عن شخص كاتبه وحياته ومعتقداته الشخصية في أمور الحياة اليومية. وهكذا أشاهد لوحة فنية أو أستمع إلى سمفونية. أتمتع بالاستماع إلى سمفونيات بيتهوفن دون أن أحتاج أن أعرف أنه أصيب بالصمم.

أستطيع أن أقرأ غوته، أفهمه وأتعلم منه. أما إذا كانت طاقتي الذهنية وذائقتي الأدبية وظروفي الأخرى لا تسمح لي بذلك، فإنه في مقدوري أن أقول أيضاً: «لا أقرأ غوته، لأنه كان يعارض الثورة الفرنسية». كذلك «لا أقرأ رلكه لأنه كان مثلياً» (بالعربية شاذ جنسياً). و«لا أقرأ لوركا لأنه كان مثلياً». هل يتحتم على كل مبدع أثر فني أن يطابق مفاهيمي وظروفي في كل مجال؟

الدارس والناقد والمختص والخبير والمفسر وكاتب السيرة، هؤلاء يتقصّون كل صغيرة وكل تفصيل في حياة المبدع. من نتاج هؤلاء ثمة تسع صفحات بالعربية أحيل القارئ «عالهوية» إليها: فرانز كافكا: «الآثار الكاملة / مع تفسيراتها»، الجزء الأول، ط ٣، ص ١٤٢ ـ ١٥٠ (صديق كافكا + هوية كافكا)، الجزء الثاني، ط ٣، عام ٢٠٠٩، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ (حديث مع كاتب لسيرة كافكا).

إبداع كافكا يعالج طبيعة البشر بصفتهم بشراً وليس أعضاء في جماعات

معينة. يعالج طبيعة «المجتمع البشري» وليس مجتمعاً مخصوصاً. الحديث عند كافكا هو دائماً عن «الإنسان» بعامة وليس عن أناس أية جماعة معينة. لذا فإن إبداع كافكا يُقرأ ويُفهم في سائر أنحاء العالم. «نصوصه الأمثولية تدعو للعمل منه مكتب استعلامات عن الوضع الأبدي أو الحالي للإنسان». هذه الجملة التي كتبها الفيلسوف تيودور أدورنو هي جملة أساسية لفهم آثار كافكا(*).

(*) نشر هذا الحديث في المجلة الشهرية «أفكار» (عمان، العدد ٢٩٥، آب ٢٠١٣). كما نشر في صحيفة «القدس العربي» (لندن، ٢٠١٤/٣/١٢).

هنا أشكر صديقتي وزوجتي أنّي لدعمها ورعايتها لي؛ إذ لولا مساعدتها، لما نشأ هذا الكتاب (ا. و.).

Hier danke ich meiner Freundin und Ehefrau Anne fuer ihre Unterstuetzung und Fuersorge, denn ohne ihre Hilfe waere dieses Buch nicht entstanden (I. W.).

يصدر لاحقاً

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيرات

٥

(البنية الجدلية للوجود البشري)

القصص

ترجمها عن الألمانية

ابراهيم وطفي

اعبد الحياة

رواية حياة في رسائل

I

حب من المهد إلى اللحد

ابراهيم وطفي

اعبد الحياة

رواية حياة في رسائل

II
صداقـة

ابراهيم وطفي

في المكتبات

اعبد الحياة

رواية حياة في رسائل

III

كافكا

ابراهيم وطفي

اعبد الحياة

رواية حياة في رسائل

V

أسرة بديلة

ابراهيم وطفي

للمترجم

الكتــــــــاب	الكاتــب	النـاشــــــــر
١ ـ حديث عن فيتنام (مسرحية)	بيتر فايس	وزارة الثقافة / دمشق ١٩٧٠
٢ ـ لعبة حلم (مسرحية)	أوغست ستريندبرغ	وزارة الثقافة / دمشق ١٩٧٢
٣ ـ القضية (مسرحية عن رواية كافكا)	بيتر فايس	مجلة الحياة المسرحية / ١٩٨١
٤ ـ الليلة التي نبح فيها الرئيس (مسرحية)	هاينر كيبهارت	مجلة الحياة المسرحية / ١٩٨٣
٤ ـ ليلة جمعة (المسرحية السابقة)	هاينر كيبهارت	وزارة الثقافة / دمشق ١٩٨٤
٥ ـ أحاديث مع غابرييل غارسيا ماركيز	بلينيو ميندوزا	دار طلاس / دمشق ١٩٨٦
٦ ـ مرتس (مسرحية)	هاينر كيبهارت	منشورات وطفي / دمشق ـ بون ١٩٩٠ (ط٢: ١٩٩٧)
٧ ـ معركة منزلية (مسرحية)	مارتن فالزر	منشورات وطفي / دمشق ـ بون ١٩٩٤
٨ ـ الحكم	فرانز كافكا	منشورات وطفي / دمشق ـ بون ١٩٩٤
٩ ـ رسالة إلى الوالد	فرانز كافكا	منشورات وطفي/ دمشق ـ بون ١٩٩٦
١٠ ـ حرب الشمال على شعوب الجنوب	عدد من الكتاب	منشورات وطفي / دمشق ـ بون ١٩٩٦
١١ ـ ثلاثة كتاب من الألمانية	فايس.كيبهارت.فالزر	منشورات وطفي / دمشق ـ بون ٢٠٠٠
١٢ ـ ١٣ ـ الآثار الكاملة (١) [الحكم/ الوقاد/ الانمساخ/ رسالة إلى الوالد]	فرانز كافكا	منشورات وطفي / دمشق ـ بون ٢٠٠٠ (ط٣ عام ٢٠٠٨)
١٤ ـ الآثار الكاملة (٢) المحاكمة	فرانز كافكا	منشورات وطفي / دمشق ـ بون ٢٠٠٢ (ط٣ عام ٢٠٠٩)
١٥ ـ كافكا في النقد العربي	عدد من النقاد والكتاب	منشورات وطفي / دمشق ـ بون ٢٠٠٦
١٦ ـ الآثار الكاملة (٣) المفقود	فرانز كافكا	منشورات وطفي/دمشق ـ بون ٢٠٠٦
١٧ ـ الآثار الكاملة (٤) القلعة	فرانز كافكا	منشورات وطفي/دمشق ـ بون ٢٠١٤



هذا الكتاب

«حين أفاق غريغور سامسا ذات صباح من أحلام مزعجة، وجد نفسه وقد تحول في فراشه إلى حشرة ضخمة ... وفكر قائلاً في ذات نفسه: 'ما الذي أصابني'؟ لم يكن ذلك حلماً ...».

لا، ليس هذا حلماً. وما يبدو لاواقعية خيالية لهذه الحشرة هو بالذات منتهى الواقعية التي لا يستطيع أحد أن يفلت منها.

لأن غريغور سامسا يريد أن يعيش كفنان، فإن محيطه يعتبره حشرة قذرة.

هنا يُنظر إلى غريغور بأعين عالم لا يحدد قيمة الفرد إلا حسب الفائدة المادية التي يمكن أن تُجنى منه. إن ضمان الرزق وحده لا يكفي، بل يمكنه أن يقوم بتغطية الجوهري في الإنسان، وتشويه هذا الجوهري وتدميره.

تبيّن هذه القصة كيف يؤدي الخضوع للقسر الاجتماعي إلى تدمير استقلالية المرء وتحويل الإنساني فيه إلى وحشي.

وغريغور سامسا لم يمت منذ عام ١٩١٢، العام الذي ولد فيه، بل ما زال حياً في أسر كثيرة.

قيل عن «الانمساخ»، إنها القصة الأكثر كمالاً والأكثر شهرة في القرن العشرين.

وقيل عن كافكا إنه لا يصوغ ظواهر سوريالية، وإنما يصوغ حقيقتنا، وذلك بأقصى درجات الصدق الفني. والحقيقة المرعبة لهذه القصة هي الإدراك أن أجمل العلاقات بين الناس وأكثرها رقة وحناناً إنما تقوم على الخداع.